الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران -السانيا

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية



ابن قنفد القسنطيني

حياة و آثاره
(740-810هـ/1339-1407م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير
في القرآن والدراسات الأدبية

من إعداد الطالبة :

بلفرح عبد الرحمان

إشراف الدكتور الأستاذ :

أ.د. بن نعمية عبد المجيد

السنة الجامعية 2006-2007

قبس

يقول ابن قنفذ:

مضت ستون عاما من وجودي وما أمسكت عن لعب ولهو
وقد أصبحت يوم حلول إحدى وثامنة على كسل وسهو
فكم لإبن الخطيب من الخطايا وفضل الله يشمله بعفو

وقال ابن خلدون في بغيته:

التاريخ هو ذكر أخبار السلف وعبرة للخلف، وتدوين أخبار العظما عن أسوة في الفخر اللباب وعظة وذكرى لأولي الألباب.

قال الحجوي:

"فليت المغاربة كان لهم ولوع بالتاريخ وبالأخص تاريخ الرجال...فالأمة برجالها والسهام بنصالها..."

كــل أمـر إذا تم بــدا نقصه
تـــوقع زوالا إذا قيـــــل تم

تعد الدراسات التي تهتم بالأعلام التاريخية، وتعدِّد أجلّ أعمالهم من أهم الأبحاث التي يسعى دارسوها إلى الكشف عن دور هذه الشخصيات في مختلف نواحي الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، طوال فترات التاريخ الإسلامي والوسيط منه خاصة، وماله علاقة بالمغرب الأوسط على الوجه الأخص.

وقد ترك هؤلاء بصمات خالدة عرَّفت بهم، وكونت تصانيفهم ومؤلفاتهم تراثا فكريا وعلميا متنوعا ثريا وان كان أكثره لم ير النور، ولا يزال أكثره حبيس الخزائن.

ولما كانت حاجتنا ملحة في التعرف على فكر المزيد من الأعلام والشخصيات، التي انارت عصرها ومصرها، وثابرت بكل ما تملك لأجل التحصيل والإفادة. لذا نبقى مطالبين بالغوص في تراثهم المتنوع وإعادة دراسته وتحقيقه وإخراجه لتحصيل الفائدة، ونقل تجارب السابقين وأفكارهم.

ويبقى الفكر الإنساني عبارة عن تراكم وتلاقح علمي. ولعلنا نقف من خلال هذه الدراسة على أحد هؤلاء الذين أضافوا لتراثنا بعض ما جادت به قرائحهم، وتعكس مدى التواصل العلمي والثقافي، والاحتكاك الفكري بين علماء المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري.

وقد وقع الاختيار في هذا البحث على واحد من تلك الشخصيات والأعلام الجليلة القدر، والتي كان لها عميق الأثر في الحياة الثقافية والعلمية في المغرب الإسلامي عامة، وفي قسنطينة الحفصية خاصة. وتتمثل في شخصية العلامة ابن قنفذ القسنطيني (740- 810هـ)، الذي عاش في كنف الدولة الحفصية، وتفاعل مع معطيات الحياة السياسية والثقافية والحضارية، وجاب المغرب الإسلامي، طالبا العلم ومدرسا، ومؤلفا.

كما يعد ابن قنفد من أشهر نوابغ علماء المغرب الإسلامي الذين طافوا بين أقطاره. ولم تمنعه الحدود الإقليمية كغيره من علماء هذا القطر، ولم تفتر همته العالية عن توعية مجتمعه وإرشاده وإصلاحه. والمتتبع لمراحل تعليمه ودراسته، يلحظ نبوغه وهمته التي لا تعرف الكلل، رغم توتر الأحداث السياسية وتأثيراتها. كما أن موسوعيته تدل على تفوقه ونجابته بين علماء عصره في فنون عدة، تأليفا وتدريسا، ووقوفا على مهمات أحداث عصره وتسجيلها بدقة. واحتلاله بذلك الصدارة في كثير من الفنون التي أشار إليها بنفسه أنه لم يسبق إليها، والبحث في حضارة المغرب الإسلامي من خلال الحياة الفكرية المبكرة التي عاشتها البلاد، فإن ذلك يدعو للبحث و التنقيب، من خلال الصراعات العقدية والفقهية، وهذا ما أنتج نهضة علمية وفكرية، فازدهرت منذ القرون الأولى بالمشرق على أيدي التابعين، وبفضل قرائح

الأعلام، ومدى مساهمة أهل المغرب في ذلك بعد انتقالها من المشرق ونضبهم منها، كان أوفر في بث العلم وحضارته، وتنشيط الحياة الفكرية.

وقد ظهر ببلاد المغرب ما كان بالمشرق من فرق ومنازعات وانتفاضات، كان لها صداها وتأثيرها في بناء هيكل الثقافة الإسلامية بهذه الربوع، فظهر التشيع بأبشع مظاهره، وظهر الفقه برجاله وفروعه ومذاهبه، وهذا ما أطلق للحياة العلمية والحركة الفكرية عقالها، فحفظت بذلك للمغرب الإسلامي تراثا علميا زاخرا، وجنبها في كثير من الأحوال الزيغ. وكان أولا وآخرا للسياسة دورها الفعال في تعقيد الأمور وإيغار الصدور وإيقاد الفتن. ولم يسلم من ذلك العلماء ورواد العلم وأهله.

وتأتي هذه الدراسة محاولة إظهار بعض هذه المظاهر، التي كان المغرب الإسلامي مسرحا لها وميدانا لكثير من مجرياتها، مبرزة لحياة وآثار ابن قنفذ، الذي اتقد علما ونضج فكرا، أنار واستنار في ظروف سياسية وثقافية اشتد فيها التنافس العلمي من جهة، والتجاذب السياسي من جهة ثانية.

وتعود أسباب اختيار هذا الموضوع إلى:

1- تشجيعات الأستاذ المشرف على خوض غمار مثل هذه الدراسات، وإبراز الأعلام المغمورة خاصة أعلام الجزائر، وحثه المستمر على البحث الجاد والمتواصل.

2- قلة الدراسات المتعلقة بالموضوع، فأغلبها عبارة عن معلومات وإشارات. وتراجم مقتضبة مختصرة، في ثنايا كتب التراجم والتاريخ لا تشفي غليل الباحث، الذي يبتغي التعرف أكثر على ما تركته ودونته هذه الشخصية.

3- العمل على تلسيط الضوء على هذا العلم، والتعريج على عائلة القنافذة التي تعتبر من العائلات التي ذاع صيتها في قسنطينة والمغرب الإسلامي، خاصة لدى الحفصيين، نظرا لتوارثها العلم والمعرفة أبا عن جد، وشهرتها بالخطابة والقضاء لدى البلاط الحفصي، إذ أن أغلب أفرادها تولوا مناصب إدارية، واشتغلوا بالخطابة والإفتاء.

4- الرغبة في التنقيب عن ماضي الأسلاف لعدم إنصافنا لهم، وإهمالنا لمآثرهم بعد رحيلهم، وضرورة التخلص من هذا الإهمال الذي قضى على مآثرهم، والسعي لإيجادها، وتهيئة أسبابها، وكذا دراسة الحواضر التي احتضنتهم وأوقدت فيهم هذه الشعلة العلمية، التي أثروا بها ما استطاعوا. والدور علينا اليوم لإظهار ما قدموه، والتعريف به.

وتتمحور الإشكالية التي يبحث فيها هذا الموضوع حول إبراز دور ابن قنفذ في تفعيل الحياة العلمية خلال العهد الحفصي بالمغرب الإسلامي، ومدى مشاركته فيها، والتعرف على جوانب حياته ونشاطه العلمي وآثاره، وكذا

التأثير والتأثر بعلماء عصره، وفي بنيته العائلية والاجتماعية التي ساهمت في تكوينه وبروزه باعتباره عالما موسوعيا.

ولمناقشة هذه الإشكالية، وجبت الإجابة عن مجموعة من التساؤلات الفرعية أهمها:

1- ما مدى التفاعل الذي أظهره ابن قنفذ مع بيئته السياسية والثقافية والاجتماعية؟

2- ما هي مؤهلاته العلمية ليحظى باهتمام علماء عصره، وسلاطين الدولة الحفصية؟

3- ما هي المميزات العامة لعصر هذا العلامة وعوامل نبوغه؟

4- وكيف استطاع التوفيق بين التأليف في عدة ميادين، والإسهام الفكري على الرغم من عبء الوظائف التي تقلدها وأوكلت إليه؟

5- كيف استطاع تكوين هذه الموسوعية، واكتساب القدرة على التدريس والتأليف والخوض في تخصصات علمية وعقلية محضة؟

6- ما مدى تأثيره في أسرته ومحيطه، والوصول إلى دواليب الحكم الحفصي؟

7- وهل يمكن اعتبار ابن قنفذ مؤرخا أو فقيها أو نسابة أو فلكيا رياضيا من خلال آثاره؟

وتم الاعتماد في هذا البحث على المنهج التاريخي الوصفي، القائم أساسا على تتبع الأحداث والوقائع، بحسب تسلساها التاريخي، المبثوثة في النصوص الأصلية الأساسية، مع مختلف المصادر والمراجع اعتمادا، على المنهج الاستقرائي، على الرغم من صعوبة الوصول إلى الحقائق.

ومن بين الصعوبات والعوائق التي واجهتني في هذا البحث ما يلي:

1- تفرّق إنتاج ابن قنفذ المخطوط في مختلف المكتبات العالمية (باريس – مصر- تونس- المغرب) وبعضها داخل الجزائر.

2- صعوبة الوصول إلى آثار ابن قنفذ خارج الجزائر.

3- تشابه المادة التاريخية التي نجدها تكرّر في مصادر عدة.

4- ذكر عناوين المؤلفات فقط دون إعطاء ولو لمحة موجزة عن هذه الآثار، وندرة المادة التاريخية التي تتكلم عنها، وعن نشاطه الوظيفي، ومنهجه وأسلوبه إلا نادرا.

أما عن مصادر ومراجع هذا البحث، فرغم أنه لا يتوفر على مصادر تاريخية متخصصة،

فإن المادة التاريخية مبثوثة في بعض من المصادر، وأكتفي بذكر أهمها على النحو التالي:

أولا: المخطوطات

1ـ **عجائب الاسفار ولطائف الاخبار لابي راس الناصري** والذي ذكر فيه تارخ الموحدين والحفصيين.

2ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: لابن مريم التلمساني (تـ: 1014هـ ت/ 1605م). ويعد هذا المصدر من أهم المصادر التي اعتمدت هاهنا، لاحتوائه على تراجم مستفيضة لبعض علماء عصر ابن قنفذ، خاصة من ولد منهم بتلمسان أو عاش فيها. كما انه أفرد لابن قنفذ وجديه ترجمة خاصة، وعدد إنتاجه كاملا، كما جاءت في شرف الطالب.

ثانيا:المصادر التي ألفها ابن قنفذ:

1- **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**: والذي تناول فيه تاريخ الدولة الحفصية وسلاطينها، وقد أفادني كثيرا في هذه الدراسة.

2- **شرف الطالب**: والذي احتوى على ثبت مهم لمؤلفات ابن قنفذ الذي وضعه بنفسه. وقد سهل علينا هذا الثبت مهمة جمع عناوين مؤلفاته المختلفة.

3- **كتاب الوفيات**: ولقد احتوى على تراجم مهمة لشيوخه، وعائلته وذكر تواريخ وفياتهم، وكذا أعلام المغرب الاسلامي

4- **أنس الفقير وعز الحقير**: والذي يعتبر من المصادر التي أفادت البحث كثيرا، خاصة فيما تعلق برحلة ابن قنفذ عبر المغرب الإسلامي، والتعرف على شيوخه من خلالها.

ثالثا: مصادر التراجم:

1- كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: لابن فرحون المالكي برن نور الدين (تـ: 799هـ)الذي يحوي تراجم علماء المغرب الإسلامي.

2- كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج: لأحمد باب التنبكتي المتوفي سنة 1036هـ ت/ 1627هـ. ويحوي إشارات تاريخية ذات أهمية وقيمة علمية هامة، والتي تفيد الباحث في مجال التاريخ الثقافي لبلاد المغرب الإسلامي.

3- درة الحجال في أسماء الرجال: لابن القاضي (تـ: 1025هـ)، ضمن موسوعة أعلام المغرب التي قام بتحقيقها محمد حجي.

4- عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغبريني، والذي تناول فيه تراجم علماء بجاية والمغرب الأوسط.

رابعا: كتب الرحلات

1- رحلة ابن خلدون: عبد الرحمن المتوفي سنة 803هـ/ 1405م. هذه الرحلة على الرغم من أنها لم تتعرض لابن قنفذ مباشرة، فقد كانت الاستفادة منه في استقراء ظروف عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والجو العلمي الذي درس ونبغ فيه خاصة وأن ابن خلدون عاصر هذه الفترة.

2- رحلة الشفشاوني المسماة دوحة الناشر: وأفادت هذا البحث في معرفة جيل ابن قنفذ ومن جاؤوا بعده.

3- رحلة ابن بطوطة: والتي حملت بين طياتها ما أعانني على استخراج بعض الدرر خاصة رحلته بالمغرب الإسلامي، ووصفه الدقيق لتفاصيل رحلته.

خامسا: كتب النوازل

1- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب: لأحمد بن يحي الونشريسي المتوفى عام 914هـ/ 1508م، ويعد هذا الأخير من أبرز الكتب في الفقه المالكي، فهو جامع لفتاوى المغربين الأدنى والأوسط. وتعود أهميته في الفتاوى والنوازل، والمناظرات الفقهية التي ساعدت في إبراز ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمغرب الإسلامي، وكذا الروابط الثقافية، واستخراجها منها.

2- الدرر المكنونة في نوازل مازونة: لأبي زكريا يحي بن موسى المازوني المتوفى عام 833هـ/ 1478م، الذي قام على تحقيقه الدكتور حساني مختار في ثلاثة أجزاء. ويعد هذا الكتاب من المصادر التي جمعت فتاوى كبار فقهاء المالكية، وتعليقاتهم ومناظراتهم. وتعد نوازل المازوني ذات أهمية كبيرة بالغة في الدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والثقافية، مما حدى بالمؤرخين الذين تناولوا المغرب الإسلامي أن يولوها الأهمية في دراستهم.

سادسا: كتب الانساب

ويأتي في مقدمتها كتاب جمهرة أنساب العرب الذي يعد من أوسع وأنفع كتب النسب، في تحديد أصول القبائل وأنسابها وذكر أسلافها.

سابعا: التاريخ العام

1- ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/ 1405م، خاصة الجزئين السادس لاحتوائهما على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية التي ميزت عصر ابن قنفذ.

2- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الوادي**: ليحي بن خلدون المتوفى عام 780هـ/ 1370م، والذي يعد من أهم المصادر التي تناولت الحياة الثقافية للدولة الحفصية، خلال الثامن الهجري، واحتواؤه على عدة

تراجم لعلماء العصر نفسه، والحركة العلمية والثقافية بالمغرب الإسلامي خلال الفترة نفسها.

3- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: لأبي العباس أحمد المقري التلمساني، وقد أفادني كثيرا في التعرف على الحالة الاجتماعية والثقافية لعلماء العصر خلال القرن الثامن الهجري.

ثامنا: المراجع الحديثة

من بين أهم الدراسات الحديثة التي أفادت البحث كثيرا، كتاب تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله، خاصة الجزء الأول منه، الذي تناول علماء وأعلام المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع وما تلاهما. واستهله بتحليل الوضع الثقافي والسياسي للمغرب الأوسط خلال هذا العصر، وبيان مكانة العلماء في العهدين الحفصي والزياني وكذا المريني.

كما أورد تراجم العلماء وعددا من مؤلفاتهم وإنتاجهم في مختلف الفنون، وابن قنفذ من بينهم، وقد ذكر أحد تلامذته بالمغرب، والذي لم يرد ذكره في المصادر السابقة الذكر.

وقد تم تقسيم البحث إلى مدخل وفصلين.

أما المدخل فقد تم التطرق من خلاله إلى دراسة عصر ابن قنفذ، خاصة ما تعلق بالحركة الفكرية، والحياة السياسية خلال القرن الثامن الهجري، على العهد الحفصي، وتأثيراتها ،وخاصة عائلة ابن قنفذ التي تعتبر من العائلات ذات الحظوة العلمية والجاه في قسنطينة الحفصية خلال القرن الثامن. كما أدرج أيضا تاريخ قسنطينة منذ القديم وصولا إلى المرحلة الحفصية، والتعريف بالدولة الحفصية منذ نشأتها حتى سقوطها.

ويتعرض الفصل الأول لابن قنفذ وأحداث عصره. ويتضمن هذا الفصل مبحثين؛ خصِّص أولهما لعصر ابن قنفذ من خلال دراسة الحالة السياسية، ثم الحالة الاجتماعية والاقتصادية، والحياة العلمية، وجوانب من الحياة الثقافية بقسنطينة. ويهتم المبحث الثاني من الفصل نفسه، بمراحل حياة ابن قنفذ، بدءا من مولده ونشأته وشيوخه وتلامذته، حتى وفاته.

أما الفصل الثاني فخصِّص لآثار ابن قنفذ من خلال التعرض لآثاره في العلوم النقلية، خاصة منها العقيدة والفرائض والفقه، والحديث واللغة والتاريخ، والسير والتراجم. وهذا هو محل اهتمام المبحث الأول. ثم العلوم العقلية، كالحساب والرياضيات والفلك وغيرها التي تضمنها المبحث الثاني من الفصل نفسه.

وأنهي البحث بخاتمة أوجزت فيها النتائج المتوصل إليها.

يعتبر القرن الثامن هجري من أزهى القرون التي استنارت فيها ألوان المعارف والعلوم في المغرب الإسلامي، ونبغ في هذه الفنون رجال أغنوا بكتاباتهم تراثنا الثقافي العربي الإسلامي، لقد أغنوها بكتابات ظلت شاهدة على تراثهم المعرفي وغزارة فكرهم. ضف إلى ذلك انتشار الفكر الصوفي الذي ميز هذه الحقبة، واستلائه على عقول المفكرين والكتاب والفقهاء، خاصة أيام الموحدين، حيث زاد هذا الاتجاه من ضعف المسلمين بالأندلس، مما غلب النصارى عليهم. وهذا ما دفع بالعلماء إلى بثّ الروح الدينية في نفوس المسلمين وإيقاد شعلتها من جديد، ليتشبثوا بعقائدهم ويتحمسوا لها دفاعا عن الإسلام، وردا للمد الصليبي على بلاد المسلمين.

كما امتازت هذه الفترة بتبادل ثقافي واسع بين مختلف نواحي المغرب الإسلامي، وهذا ما جعل علماء ذلك العصر يجوبون هذه الأقطار في طلب العلم رغم تشتت الوحدة السياسية. فبعد ضعف الدولة الموحدية، وظهور الخلافات والخصومات بين أمراء الأندلس وغيرهم، الأمر الذي كان دافعا لأطماع المتربصين الذين كانوا يشعلون الفتنة، ويذكون نارها. حينها أحس المسلمون بالخطر فأخذوا يتسللون نحو المغرب، وكان حظ حاضرة بني زيان كبيرا،[1] وتلتها حاضرة الحفصيين بقسنطينة وتونس، وآخرها المرينيون بالمغرب الأقصى بحاضرة فاس. وقد اختلفت طبقات المهاجرين من الأندلس من حيث الجاه والعلم والمال، ولعبوا دورا هاما في الإنتاج الثقافي المغاربي، واحتكر هؤلاء التعليم وميادين السياسة والجيش[2]. وقد احتفظت كتب التراجم بألقاب لبيوتات أندلسية راقية ساهمت في صنع الحياة السياسية والفكرية والعلمية في المغرب الأوسط وخاصة في حاضرة قسنطينة، ومن أبرزها على سبيل المثال عائلات ابن قنفد، وعائلة الفكون، وعائلة ابن باديس.[3]

وقد كان لهذه الهجرات أثرها في مختلف نواحي الحياة ببلاد المغرب خصوصا وأنهم قدموا من بيئة حضارية أرقى من المستوى الحضاري بالمغرب،[4] وقد بدأت بوادر التأثير الأندلسي المتسرب إلى المغرب الأوسط تظهر من خلال فقدان الطابع البدوي بسبب هذا التأثير[5].

(1)- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري : (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981)، ص. 148.
(2)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1 (دار الغرب الإسلامي، ط.1 بيروت ، 1998)، ص.4.
(3)- أبو القاسم سعد الله، عبد الكريم الفكون داعية السلفية (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1986)، ص.36.
(4)- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2003)، ص.45.
(5)- بوداود عبيد، المرجع السابق، ص. 47.

أما مجتمع قسنطينة فهو مجتمع حضاري متماسك، وكان للعائلات الكبيرة، ولا سيما الدينية دورا فعالا ونافذا في تنظيم العلاقات العامة وحمايتها، وتنشيط الحياة الإقتصادية، والتحرك بفاعلية في الأزمات(كالطواعين والجوائح الأخرى).

كما كان هناك تنافس بين هذه العائلات من أجل المجد والجاه والثروة، لكنه لم يبلغ حد التنافر أو التحارب. وكانت غالبية العائلات في قسنطينة تعيش على العلم والتجارة. فقيمة العائلة كانت تكمن في تراثها العلمي وتنشئة أبنائها عليه، وعلى تولية القضاء والفتوى والتدريس. وهذا ما تعتز به كل عائلة وتفاخر. فهو طريقها إلى المجد والشهرة والنفود، ولم يمنع ذلك التفاخر من التجارة بطريقة أو بأخرى بالنسبة لباقي العائلات.[1]

وعلى الصعيد الثقافي اتسمت الحياة العلمية في قسنطينة بالنشاط الفكري والثقافي من خلال الرصيد الذي ورثته عن العهد الحفصي، وعرفه القرن السابع والثامن الهجريين.[2] كما عرف إقليم قسنطينة نشاطا واضحا في الحياة الثقافية لم يتأثر كثيرا بالأحداث السياسية، رغم كثرتها. فقد انتشرت المدارس والزوايا، والتي كان بعضها تحت رعاية الطرق الصوفية.

كما اشتهرت قسنطينة ونواحيها بهذه الحياة العلمية التي مثلها رجال اشتهروا بالتدريس والتأليف، خاصة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين وحتى القرن التاسع.

وقد كانت قسنطينة تتبع الحكم الحفصي الذي كان مقره المغرب الأدنى(تونس)، وولاتها يعينون من قبل الأمير الحفصي من الناحية السياسية. وعرف هذا النظام كغيره الزياني والمريني مراحل من الضعف والتهالك جعلته مطمع الأسبان، وحتى العثمانيين. خاصة وأن أهل الأندلس لم يجدوا من أمراء المغرب القوة اللازمة لإنقاذهم من الخطر الإسباني، فراحوا يستنجدون بالدولة العثمانية، وانتهى الأمر بفرض الحكم العثماني في الجزائر وطرابلس ومصر وتونس، تقريبا في وقت واحد. وقد شمل هذا التغيير النظام الحفصي كغيره.

الحياة الفكرية في قسنطينة والمغرب الأوسط:

إن أول ما يسترعي الانتباه أن الحركة العلمية بالمغرب الأوسط، وبالأخص قسنطينة وباقي الحواضر العلمية نحو تلمسان وبجاية، كانت نتيجة جهود العلماء الذين أنجبتهم هذه الأخيرة، فالدين الذي أصبح في هذه الفترات راسخا في نفوس الناس، سواء في المدن أو الأرياف، امتد تأثيره إلى معالم الحياة كلها، بما في ذلك الحياة الإقتصادية والاجتماعية. كما أصبحت لغة القرآن هي لغة التخاطب لأغلبية

(1)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص. 5.

(2)- الغبريني، عنوان الدراية (المطبعة الثعالبية، ط.1، الجزائر 1910)، ص. 12.

السكان، عدا من قطنوا الجبال وغيرها من الأراضي المنعزلة. فاللغة العربية أصبحت هي لغة الكتابة والتعلم، ولغة الحضارة لكل من أراد طلب العلم. وهكذا تكون العلماء وتفوقوا في فكرهم وثقافتهم.[1]

وكان ذلك نتيجة لعدة عوامل يرجع زمن وقوعها إلى ما قبل الحفصيين بقسنطينة، والزيانيين بتلمسان، وخلال العهد الحفصي، خصوصا القرون الثلاثة السابع والثامن والتاسع الهجريين. وبعد ورود عهد جديد تمثل في المد المسيحي على دار الإسلام بالأندلس حيث تواصل سقوط مدن الإسلام ومعاقله تباعا، كما أصبح هذا الزحف المسيحي يهدد حتى سواحل وموانئ المغرب الإسلامي ككل. وقد أثر ما حل بالإسلام ببلاد الأندلس في نفوس الناس فزاد تعلقهم به.

كما امتازت الحياة الدينية في هذا العصر، أي خلال القرن الثامن الذي تلا الزوبعة العقائدية التي أحدثها المهدي بن تومرت، [2] وخلفاؤه من بعده بانتصار مذهب أهل السنة في ميدان العقائد، وبانتصار المذهب المالكي في الفقهيات بصفة نهائية. وهكذا فإن المذهب العقائدي الذي أرادت الدولة الموحدية فرضه على سكان المغرب قد اندثر بانحلال هذه الدولة وسقوطها، فاستعاد فقهاء المالكية الذين كان ابن تومرت قد ثار على مفهومهم للدين، ويبدو أن الأثر الوحيد الذي خلفته الدعوة الموحدية هو رسوخ المذهب الأشعري[3] في نفوس الناس من العامة والخاصة واسترجاع الحديث وعلم الأصول مكانتهما بعد أن ابتعد عنهما فقهاء المالكية في العصر المرابطي[4]، ومما امتاز به هذا العصر في القرن الثامن انتشار حركة المتصوفة بين جميع طبقات المجتمع، بما فيه الفقهاء. ومن المعلوم

---

(1)- يحي بن خلدون، في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات (الجزائر: المكتبة الوطنية، 1980) ص 62.

(2)- **المهدي بن تومرت:** مؤسس الدولة الموحدية. وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت ولد سنة 485هـ /1092م، وتوفي سنة 524هـ/1130م. يلقب المهدي منشيئ الدولة الموحدية، وينسب إلى قبيلة هرغة في أقصى المغرب. وقد أثبت المؤرخون أن ابن تومرت ينتهي إلى قبيلة مصمودة. بدأ دعوته الإصلاحية ثم ثار على المرابطين وأقام دولته على أنقاضها.

- ينظر: عبد المجيد النجار، ابن تومرت حياته وأراؤه (دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت 1986)، ص. 605. وقد اختلف في سنة وفاته.

(3)- الأشعري: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن أبي يسر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى، ولد سنة 260 هـ بالبصرة، من قبيلة أشعر باليمن وقد سار على مذهبه العقدي الكثير من المسلمين. توفي سنة 324هـ.

- ينظر: السبكي، طبقات الشافعية، تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطاء، ج.2 (بيرزت: منشورات دار الكتب العلمية، ط.1، 1999)، ص. 245.

- الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق: حسين العفاني وخيري سعيد، ج.2 (المكتبة التوفيقية، ب.ت. ن. القاهرة)، ص. 371.

(4)- من الراجح أن تسمية بعض العلماء بالمجتهد والأصولي والمفسر والمحدث والحافظ، ومنهم الحافظ التنسي صاحب "نظم الدر والعقيان " في العهد الزياني كانت من آثار الموحدين.

أن أكثر أساطين التصوف ظهروا في العهد الموحدي، ومنهم أبا مدين شعيب[1] في تلمسان وأبا الحسن الشاذلي.[2]

وقد أخذت هذه الحركة الصوفية بفضل هؤلاء وتلاميذهم وأشياعهم اتجاها واحدا من الأندلس إلى إفريقية، حتى تغلغلت تعاليمهم في أوساط سكان المغرب. وقد أدى ذلك إلى تغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية وعلى أكثر مظاهر الحياة بالبلاد.

وإذا رجعنا إلى كتب التراجم التي من أشهرها "نيل الابتهاج" للتمبكتي، و"كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم المتوفى في أوائل القرن الحادي عشر، و"تعريف الخلف برجال السلف" للحفناوي. نجد صفحات هذه الكتب حافلة بالأحاديث عن كرامات هؤلاء المتصوفة وذكر مناقبهم وهم كثر. وإلى جانب هذه الفئة التي غلب عليها التصوف والزهد نجد أن التصوف أثر في بعض علماء العصر.كما كان لابن قنفذ بدوره إسهام في ذلك من خلال مخطوط موسوم "بطبقات علماء قسنطينة" وكتابه الشهير "الوفيات" الذي ترجم فيه لمجموعة من علماء المغرب الأوسط، وكذا كتابه "أنس الفقير وعز الحقير" الذي ترجم فيه لأبي مدين وذكر كرامات عدة أولياء ومتصوفة، والتي دونت في القرن الثامن وما تلاه واهتمت حياة العلماء والصالحين الذين ولدوا بالمغرب الأوسط واستقروا فيه.

كما لا ننكر وجود بعض المظاهر الإيجابية التي نتجت عن نشر تعاليم التصوف في أرجاء المغرب، ومنها أنه ساهم في تمسك المجتمع وخاصة الأرياف منهم بالدين، ويَسَّرَ نشر تعاليمه واستنفار السكان ضد المعتدين على دار الإسلام كالمدِّ المسيحي. وإلى جانب هذه المظاهر الإيجابية بدأت تظهر أخرى سلبية منها مساهمة التصوف في انحطاط المستوى العلمي وركود الحياة الأدبية والفكرية.

كما عرف ملوك المغرب الأقصى عنايتهم بالعلم وإنشاء المراكز والحواضر بأمر من هؤلاء السلاطين والملوك لدليل على ذلك. ومع أن الدولة الحفصية قد وهنت قواها بسبب الأزمات السياسية التي توالت عليها فإن ذلك لم يقلل من استمرار هذه الحركة العلمية وتواصل العلماء فيما بينهم في نشر العلم تعليما وتعلما.

---

(1)- هو أبو مدين بن شعيب بن الأندلسي سلمان الشيخ المحقق الواصل القطب شيخ مشايخ الإسلام في عصره إمام العباد والزهاد من فضلاء العباد الأندلسيين وناصية إشبيلية فتح الله عليه بمواهب قبلية وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل إلى غاية ما يؤمل، ينظر: الغبريني، المصدر السابق، ص. 5.

(2)- هو أبو الحسن الشاذلي من كبار المتصوفة له طريقة اشتهرت في كامل المغرب الإسلامي وله اتباع كثر. ينظر: عبد الوهاب فرحات، أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف،(مكتبة مدبولي، القاهرة، 2003،) ص. 52.

كما أن ضم أطراف المغرب بعضها مع بعض الذي دعا إليه المرابطون والموحدون من قبل، وانتهاؤه على أيدي ملوك فاس من بني مرين والسلاطين الحفصيين والزيانيين جعل هذا الجزء من العالم الإسلامي إقليما يمتاز بخاصيات نذكر منها اعتناقه لمذهب عقائدي واحد، ومذهب فقهي غالب، وامتيازه ببعض أساليب التعليم التي عرضها عبد الرحمن بن خلدون في فصول مختلفة من مقدمته. (1)

كما بدا ازدهار بعض العلوم أكثر عن غيرها، نذكر منها شدة اعتناء أهل المغرب والأندلس بقراءات القرآن، وميلهم الكبير للبديع، (2) وتفوقهم في علم الحساب. وكان من نتائج هذه الحركة العلمية أن كثرت المراسلات العلمية بين العلماء وازداد تنقلهم وترددهم وكثرت رحلاتهم حاملين أفكارهم ومناهجهم العلمية بين أقطار المغرب الإسلامي، وحتى الأندلس، فحققت بذلك وحدة ثقافية مغربية أندلسية، أنجبت عددا كبيرا من العلماء وقائمة من المفكرين والمجددين خلفوا تراثا فكريا وثقافيا واضحة معالمه، من خلال المصنفات والمصادر التي بلغتنا. وبقيت الحركة العلمية بالمغرب الأوسط نشطة، وخاصة بقسنطينة التي اشتهرت بوجود عائلات علمية توارثت هذه التركة الفكرية أبا عن جد، مثل عائلة باديس، وعائلة ابن قنفذ، والتي عرفت كلها بالعلم وأنجبت علماء أفذاذ منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، وعائلة الفكون هي الأخرى توارثت العلم أبا عن جد ومنها العلامة عبد الكريم الفكون ووالده وغيرها من الأسر .

غير أن استمرار النشاط العلمي لا يعني دائما ازدهارا علميا، إذ أن الثقافة في ذلك العصر أصبحت تحمل في ثناياها عناصر التدهور، وسبب ذلك هو تعلق العلماء بالماضي.(3) وأصبح جلهم مقلدا ويظهر ذلك في اقتصارهم على وضع الشروح والتقاييد والتعاليق على المصنفات.

ولا شك أن المغرب قد قصد في تسميته وإطلاقه الأول أن يكون مقابلا للمشرق باعتبار أن كلا منهما يشكل صمام أمن وأمان في سلامة دينه وكيانه مما جعل المغرب في موضع يتطلب منه أن يبذل قصارى الجهود عساه أن يكون مكافئا لذلك الكل المتعدد، والنبع المتجدد الذي هو المشرق، علما بأن الأمة لا نهوض لها إلا بشقيها مشرقها ومغربها.

ولذلك ما تخلف المغرب في تحقيق هذا التكافؤ والتوازن العلمي

(1)- يقول ابن خلدون عن علم البلاغة: "وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة. ...وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ". ينظر: المقدمة، ص 67.

(2)- عبد الرحمان بن خلدون، فصل في تعليم الولدان، المقدمة (ص ص1010، 1015).

(3) – يحيى ابن خلدون، بغية الرواد ، ص. 13.

والحضاري المنشود. لذلك قدم المغرب الإسلامي المزيد من العطاء، وأبان النماذج الحية لذلك، وحمى الديار وصان الثغور، فكان له الدور الجليل في الحفاظ على الإرث العلمي الغزير للأسلاف، وصون كنوزه الدفينة وذخائره ووثائقه ومخطوطاته، حتى اشتد لهف طلاب العلم إليه جريا وراء هذا التراث الثري، فكان أريحيا سخيا كما جاء به الأولون، ضاربين الصفح عن الحزازات الإقليمية، خصوصا إذا تعلق الأمر بالعلم وطلبه ونشره في الناس. ونجد أن ابن خلدون قد سجل للمغاربة هذا الاعتناء والتشبث بالعلم وطلبه، إذ قال :"وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين..."[1].

وقد كانت قسنطينة خلال القرن الثامن 8هـ الذي نحن بصدد دراسة علم من أعلامها، بمثابة عاصمة جهوية في القسم الغربي من إفريقيا التابع للمملكة الحفصية وكان سكانها من الحضر وهم الكثرة الغالبة، ويشمل هذه العائلات القديمة التي استوطنت المدينة منذ أحقاب والعائلات الحضرية الطارئة من الأندلس وبجاية وتونس وغيرها.

ونظرا لأهمية المدينة استراتجيا في توسطها بين المغربين الأوسط والأدنى، أي غرب إفريقية[2]

فقد تميز القرن الثاني عشر ميلادي بتلك الحركة الواسعة التي قادها عبد المؤمن بن علي، الذي صاغ المذهب الموحدي كما فعلت معظم الحركات التي عرفها المغرب، والتي كانت تعتمد وتقوم على مذاهب وقبائل أخرى. إلا أن الموحدين بإمبراطوريتهم الواسعة لم توحد المغرب الإسلامي فحسب، بل ضمت حتى الأندلس الإسلامي الذي عانى من الضربات الإيبرية المضادة للوجود الإسلامي في عدوة الأندلس. إلا أن هذه الإمبراطورية التي لم يشهد لها مثيل في الغرب الإسلامي عبر تاريخه أخذت تتداعى مند هزيمة العقاب سنة1212[3](بعد عشر سنين تقريبا من هذه الهزيمة انشطر المغرب فيما بعد إلى ثلاث دويلات)، وأعقب سقوط الموحدين صراعات عسكرية حادة من دول المغرب الإسلامي ، كان المغرب الأوسط مسرحا لأغلبها أكثر من المغربين الأدنى والأقصى بحكم موقعها الجغرافي الذي أضعف السلطات المركزية لهذه الدويلات.

1- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (منشورات مؤسسة الأصلي للمطبوعات، بيروت 1971)،ج 6 ص. 110.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص. 170.

3- معركة العقاب عام 669هـ وهي من المعارك الحاسمة التي مني فيها المسلمون بهزيمة ساحقة قد اشتركوا فيها بجيش قوامه نصف مليون مقاتل ويعد أعظم جيش إسلامي أعد لحرب النصارى في الأندلس إلا أن سوء تدبير ابن جامع الوزير وضعف شخصية المنصور بالله الموحدي قائد الجيش أديا إلى هذه النتيجة ينظر المغرب عبر التاريخ ج1/ص291-292.1

وفي هذا الخضم من الصراعات كان يشتد ويزداد دموية بين الولاة الحفصيين في قسنطينة وبجاية خلال القرون السابع والثامن والتاسع هجريين.

وأدى الضعف الذي لحق دولة بني زيان ودولة بني حفص، إلى انفصال العديد من القبائل وظهور إمارات ترفض الخضوع لأي جهة ونتيجة لهذا التفكك السياسي،[1] وفتح المجال أمام القبائل العربية لتفرض هجمتها على الكثير من المناطق، كما عادت بعضها إلى سابق عهدها في الإغارة والنهب والسلب كبني هلال وبني سليم.[2]

وعلى غرار ما سبق يمكن اعتبار القرن الثامن من أوفر القرون نشاطا وأخصبها إنتاجا فكريا وثقافيا وذلك من خلال ما ألف في علوم مختلفة، وكثرة العلماء ومراكز العلم التي غصت بالطلبة، وبالرغم من وفرة الإنتاج الثقافي فإن الجانب السياسي خلال هذا القرن كان عهد اضطراب وتدهور، فالمغرب الإسلامي كان تحت نفوذ الدويلات الثلاث المرينية بالمغرب الأقصى، والزيانية بالمغرب الأوسط، والحفصية بالمغرب الأدنى، وهذه الأخيرة كانت تسيطر على جزء كبير شرق المغرب الأوسط قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت.[3]

أما غرب المغرب الأوسط فكان تحت سيطرة الدولة الزيانية التي اتخذت تلمسان قاعدة لها، في حين كانت منطقة الوسط من المغرب الأوسط تتجاذبها الدولتان الحفصية والزيانية، فلم يهدأ بها الصراع، ولم يقتصر على الحفصيين والزانيين فقط، فقد دخل المرينيون المعترك، تارة ضد جارتها الزيانية، وتارة ضد الحفصيين. وقد وصلت جيوش المرنيين حتى تونس وقسنطينة،[4] كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية وملیانة وتلمسان.[5] وإضافة إلى هذا الصراع الإقليمي ظهر صراع آخر عائلي طويل ومرير، فكل أسرة من الأسر التابعة للدويلات الثلاثة تطمح للملك، فالإبن ضد أبيه والأخ ضد أخيه، والفرع ضد الفرع. ووسط هذا التنافر والتمزق العائلي، سادت بذلك الفوضى، واشتد التنازع والتنافس، وكثرت الاضطرابات وانعدم الاستقرار،[6] وهذا ما ذكره أغلب من

1 يحيى بن خلدون، المرجع السابق، ص. 8.

2- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 40.

(3)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص. 40.

(4)- محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية وتاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي،(دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986،) د ط، ص. 2.

(5)- التنسي، نظم الذرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، (منشورات دحلب، الجزائر،) ص. 3.

(6)- ابن قنفد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: الشاذلي النيفر وعبد المجيد تركي (الدار التونسية للنشر، تونس، 1968)، ص. 22.

عاصروا هذه الفترة وكتبوا عنها [1].

قسنطينة قبيل القرن الثامن هجري:

تعتبر المصادر ذات العلاقة بتاريخ قسنطينة قبل الفتح قليلة وسطحية وتتمثل في أوصاف لجغرافيين ورحالة مثل البكري والإدريسي الذين زاروا المراكز السكنية والمدن الساحلية من المغرب الأوسط، ومن بينها مدينة دلس التي زارها الإدريسي في منتصف القرن 12م،[2] حيث كانت حدود المغرب الأوسط إليها في حين كانت بجاية والشرق القسنطيني تابعة للحفصيين، وكان الزيانيون يرون في هذه الحدود نشرا لمملكتهم، الأمر الذي جعلهم يلحون في ضم دلس وبجاية وقسنطينة إليها لموقعها الإستراتيجي والاقتصادي، وأدى ذلك إلى نشوب النزاعات المتتالية واستنجاد كل من الحفصيين والزيانيين بغيرهم من البدو الرحل الذين كان تواجدهم قبل ذلك محصورا بالجنوب، وعلى المدى الطويل أنهكتهم هذه النزاعات.

وقد غلب على هذه الدويلات المغربية الملغمة من الداخل كثرة النزاعات على الخلافة، مما أدى إلى ضعفهم تدريجيا، وكان لتدخل المسيحيين في شؤونهم عواقب لا تحمد على المغربين الأدنى والأوسط إلا بقدوم الأتراك.

وتعتبر قسنطينة[3] مدينة وقلعة يقال قسنطينة الهواء، وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية من حدود إفريقية، تمتد منخفضة حتى تساوى الأرض وحولها مزارع كثيرة وإليها ينتهي رحيل عرب إفريقية طلبا للكلأ. وتمثل قسنطينة (سيرتا ثم قسنطينة في العصور القديمة)[4]حصنا منيعا على مسطح، صخري مطل على جرف وادي الرمل، أضف إلى ذلك موقعها في الطرق الرابطة بين مدن المغرب الأوسط. كما كانت متصلة بالزاب بواسطة مسلك هام تمر منه القوافل ولا تزال توجد بها المعالم الرومانية.

قسنطينة مدينة بناها الرومان[5] وهذا شيء لا يمكن إنكاره نظرا لأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت وهي واقعة على جبل شاهق

(1)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 435.

(2)- الإدريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (عالم الكتب، بيروت، ج1 ، ط1، 1409، 1989،) ص 265.

(3)- معجم البلدان ياقوت الحموي، (دار صادر، بيروت، ج4//ط1 – 1993.)ص 349

(4)- محمد المهدي بن علي شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ قسنطينة، ص ص 46. 47.

(4)-اسم قسنطينة في القديم سيرتا وهو اسم كنعاني فينيقي وفيها اشتهر ماسينيسا، ثم أصبحت مستعمرة رومانية إلى أن خربها البربر ثم اعاد الإمبراطور قسطنطيني في أوائل القرن الرابع ميلادي بماءها وسميت بعد ذلك باسم وقد فخففها الإستعمال العربي يخفف ياء وطاء فصارت قسنطينة وبذلك يختلف عن القسطنطينة العظمى التركية،

ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية يمر عند قدميها نهر اسمه سوفهار[1]، الأخرى بهذا النهر محاطة أيضا بصخور، وفي الجهة الشمالية للمدينة أسوار في غاية القوة[2]، بالإضافة على أنها تقع في أعلى قمة الجبل بحيث أن الصعود إلى قسنطينة يبدو شاقا.

ومدينة قسنطينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير[3]، وللمدينة بابان باب ميلة في الغرب وباب الفنطرة في الشرق وهذه القنطرةهي أعجب البناءات علوا وبها بناءات للروم.

ومقربة من قسنطينة حصن يسمى"بلزمة"وهو حصن بالحجارة الكبيرة القديمة ويذكر أهل تلك الناحية أنه من أيام السيد المسيح وهذا السور يرى من خارجها عاليا جدا والمدينة ذاتها مردومة بالتراب والأحجار، فإذا نظر الناظر إلى السور من خارج رأس سورا كاملا وإذا دخل المدينة لم يجد لها سورا لأن أرض الحصن مساو للشرفات وهي مردومة وهذا غريب في البناء[4].

أما عن الدولة الحفصية فبعد تمكن الموحدين من توحيد المغرب الإسلامي، وانهزامهم في وقعة العقاب بالأندلس سنة 609 هـ - 1212م، دفع برؤساء القبائل البربرية أن يتمردوا على الحكم المركزي للدولة الموحدية، ومن جملة الدويلات التي تمردت على الموحدين دولة بني حفص التي كان مقرها إفرقية بتونس ودولة بني زيان بالمغرب الأوسط ودولة بني مرين بالمغرب الأقصى.

أما بالنسبة للدولة الحفصية التي حكمت في بعض الفترات دول المغرب الإسلامي كله، فإن مؤسسها هو أبو زكريا يحيى الحفصي[5]، الذي كان عاملا على تونس والقيروان، وهو من الموالين لابن تومرت الذي ساهم في إنشاء دولة الموحدين وكمكافأة له على دعم الموحدين تم تعيينه على ولايات في الأندلس والمغرب الأقصى ثم تعيين أحفاده على إفريقية. وبعد انهزام دولة الموحدين بادر ابو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد بإعلان استقلال إفريقية عن دولة الموحدين سنة 627 هـ - 1229م، ثم قام باحتلال قسنطينة وبجاية سنة 628هـ - 1230م،

تاريخ المغرب العربي ، سعد زغلول عبد الحميد، دار منشأ المعارف 1999 دط، ص: 103.، وينظر محمد أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ قسنطينة، تحقيق رابح بونار، د، ت، ط، ص 73.

(1)- معنى سوف الشهر أو الواد في بعض اللهجات البربرية ومعنى باقي الكلمة تعني واد الرمل، ينظر الوزان، وصف إفريقيا، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2 ، 1983).ص 55

(2)- الوزان، وصف إفريقيا، المرجع نفسه ص.56

(3)-الإدريسي، المصدر السابق، ص. 265.

(4)- حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس (تونس: الدار التونسية للنشر، ب.ت.ن.)، ص. 42.

(5)- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص: 43.

ثم تلمسان سنة 640 هـ - 1242م.[1] كما عمل الحفصيون على تنظيم دولتهم وتقسيمها إلى عدة أقاليم وعينوا على رأس كل إقليم واليا، أو عاملا من الأسرة الحاكمة يسمى نائب السلطان. وكانت قسنطينة إقليما وقاعدة حفصية ثانية بعد تونس. وبدورها قسنطينة كانت تمثل عمقا استراتيجيا واقتصاديا للسلطة المركزية الحفصية، وإحدى قلاعها. وغالبية أمراء بني حفص ولدوا ونشئوا بها، وهذا ما زاد من حضوتها لدى أغلبية السلاطين الحفصيين، وفضل كثير منهم الإقامة بها واتخذوها مقرا وممرا آمنا لحصانتها الطبيعية.[2]

وبعد تاريخ حافل بالأحداث والصراعات والنزاعات على السلطة، وبسبب الحروب الكثيرة والفتن التي انتشرت، انقرضت دولة الحفصيين سنة 748 هـ - 1347م. وفي الحقيقة أن دولة الحفصيين قد قضت على نفسها سنة 730 هـ - 1329م حين تحالف واستنجد الحفصيون بدولة بني مرين، وطلب السلطان الحفصي من أبي سعد المريني[3] أن يتعاون معه للقضاء على الزيانيين في تلمسان، وبفضل هذا التحالف تمكن السلطان المريني ابن أبي سعد المريني أن يهاجم مدينة وهران ويحتلها سنة 736 هـ - 1335م، ثم اقتحم مدينة تلمسان واحتلها سنة 737 هـ - 1336م، ثم قسنطينة وبجاية، وعزل جميع السلاطين الحفصيين، ونصب ولاة جدد من بني مرين. وفي 748 هـ احتل أبو الحسن المريني[4] مدينة تونس، وبذلك استولى المرينيون على المغرب الإسلامي بأقطاره الثلاثة، إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى.[5]

البيئة الثقافية والفكرية بتونس الحفصية خلال القرن الثامن الهجري:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي نشاطا في الحياة الثقافية وازدهار الحركة العلمية بتشييد الأمراء الحفصيين للجوامع والمدارس التي تحتضن مشيخة العلم وأفواج الطلبة وخزائن الكتب، وإقبال المحسنين على إجراء الأوقاف لرواد العلم وأهله، حيث كانت تعقد حلقات الدروس والمذاكرة. وقد شيد الأمراء الحفصيون كثيرا من المدارس وجلب العلماء لتدريس طلبة العلم.[6]

---

(1) - سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في المغرب من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة (بيروت: دار النهضة العربية، 2003)، ص. 342 وينظر. Mar cote Paysage et d'algerie Media plus 1996 pp 175 176 patronemie guide.

(2) - ابن قنفذ، الفارسية، المرجع السابق، ص. 39.

(3) - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 42 43

(4)محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص:83.

(5) سعدون نصر الله، المرجع السابق، ص: 355.

6) روبر بروشفنيك، تاريخ إفريقيا العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي،(ج2 دار الغرب الإسلامي،بيروت، 1988)، ص: 397.

وقد كان أعلام العهد الحفصي يقومون بالتدريس مع إسناد خطط القضاء والإفتاء لهم من قبل الأمراء. وقد كانت إفريقية خلال هذه الفترة التي عاشها ابن قنفد تستقبل أفواجا من العلماء والفقهاء الوافدين إليها من أقطار المغرب الإسلامي، والذين أسهموا في إثراء الحركة العلمية، ومثلوا حلقات ذهبية في سلسلة السند العلمي بإفريقية والمغرب الإسلامي.[1] وهذا المناخ العلمي صنع جيلا من العلماء منهم من دون رحلته وضمنها وصفا لبعض مظاهر الحياة العلمية بإفريقية والمغرب ككل، ومنهم من استجاز وأجاز خاصة في الفقه الذي برز فيه الكثير ممن تلقوا قواعده ومروياته وفتاويه من القيروان والمهدي. وكانت هذه النهضة العلمية مواكبة لعصر ابن قنفد، وهو عصر تآلف بين أقطار المغرب والأندلس الذي يعد فيه من أبرز وأشهر الأعلام تدريسا وتأليفا للمعقول والمنقول. وما كان غالبا هو سيادة دراسة المذهب المالكي،[2] وكثرت الشروح والمختصرات لحد الولوع. هذا الجو العلمي والفكري قابله في الجانب السياسي وضع تفاعل ابن قنفذ مع أحداثه إضافة إلى صلته الوثيقة بالسلطة الحفصية، فكان تأثير البيئة السياسية على باقي الجوانب، حيث أرخ للدولة الحفصية بتفاصيل أحداثها

ومن خلال هذه الدراسة تظهر بعض هذه المظاهر التي كان المغرب الإسلامي مسرحا لها وميدانا خصبا لكثير من مجرياتها، وتفاعل العلماء معها كابن قنفذ وغيره.

1- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس: الدار التونسية للطباعة والنشر، ص: 145.
2- المصدر نفسه، ص: 145. وينظر أبو راس الناصري، مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، المكتبة الوطنية رقم 1632، ورقة رقم 208

لقد حرص ابن قنفذ بنفسه على ذكر بعض تفاصيل حياته وعلاقته بشيوخه وتنقلاته فكانت كتبه أهم مصادر ترجمته بل تكاد تكون المصدر الأساسي وهذا ما نجده في أنس الفقير والفارسية وغيرها من أخبار يندر وجودها في المصادر وكتب التراجم الأخرى. فكما قال الحجوي: " فليت المغاربة كان لهم ولوع بالتاريخ وبالأخص تاريخ الرجال فاكتفي بأمانتهم واعتنائهم فلينتبه إخواننا على الاعتناء بتراجم الرجال وإظهارهم مظاهرهم فالأمة برجالها والسهام بنصالها، وليترجم الناس لأنفسهم بأنفسهم مادامت الأفكار عن هذه الوصية حتى لتضيع حقائق حياتهم بما يتطلب فلا توجد وكم ضاعت من حقائق بإهمال هذا الفن لم يجد الأسف عليها شيئا إهمال نبغائنا وعدم إنصافنا لهم من بعد مماتهم"،[1] وهل آن لنا أن نخلص من هذا الإهمال الذي قضى على جل مآثر أسلافنا وأجدادنا وتركاتهم العلمية الموروثة لإيجادها وتهيئة أسبابها، وهذا ما يدعو إلى الاهتمام بهذا الجانب.

المبحث الأول: حياة ابن قنفذ

أشار ابن قنفذ إلى بعض جوانب حياته في شبابه حين كانت قسنطينة حاضرة العلم في القرن السابع والثامن الهجريين تعيش على تراث زاخر بالعلم والمعارف المختلفة المشارب وهو ما هيأ له مناخا علميا ثريا.كما أن أسرته التي كان أبوه وجده لأبيه وجده لامه من كبار مدرسي حلقات العلم تدريسا وإفتاء يقصدها طلاب العلم من مختلف الجهات المجاورة لقسنطينة رغم أنها كانت لا تلمح بالاستقرار وما حافظ على التوازن الثقافي أنذاك هو بعض العائلات العلمية كعائلة المرازقة[2]وعائلة الفكون وابن قنفذ وغيرها، وفي هذه الأجواء فتح ابن قنفذ عينه وأخذت أعوام حياته تتوالى حتى بلغ سن الدخول إلى الجامع لحفظ القران الكريم.

رغم إشارات ابن قنفذ لحياته في بعض كتبه إلا أنه لم يفصل فيها كثيرا حتى يفاعته ونضجه ويظهر دلك جليا من خلال رحلته في الطلب والتحصيل العلمي.

1- الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1-1995،ج1/ص9.

2- نسبة لعائلة زروق. أشهر العائلات العلمية بالمغرب الأوسط. ينظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، ج.1، ص. 57.

1- مولده:

هو الإمام العلامة القاضي أبو العباس أحمد بن حسن علي بن ميمون الشهير بابن قنفذ[1]هو المحدث الفاضل المحدث المبارك المصنف.[2]

لا يعرف تاريخ مولده على وجه اليقين لأنه هو نفسه لم يذكر تاريخ ولادته في أي من مصنفاته غير أن التنبكتي[3] صاحب نيل الابتهاج جعلها في حدود سنة (740 - 1339م) اعتمادا على قول ابن قنفذ نفسه في هذه الأبيات:[4]

مضت سنون عامنا ومنا أمسكت عن لعب
وجدي ولهو

وقد أصبحت يوم حلولي إحدى وثامنة على كسل وسهو

فكم لابن الخطيب من الخطايا وفضل الله يشمله بعفو

ولد في سنة 740هـ الموافق ل1340م بمدينة قسنطينة حاضرة العلم في دلك العصر وسط عائلة اشتهرت بالعلم والتدين وتوارثت الخطابة في المسجد الجامع[5] لعدة أجيال حسبما

أنشدها في الوفيات. [1]

1- بنو قنفذ أو آل قنفذ، والظاهر أن هذا الاسم ينحدر من بني قنفذ وهم بطن من قبيلة أسجع اللبنانية التي كان يسمى أهلها ببني قنفذ بن حلاوة بن سبيع **بن** أسجع، وهدا أرجح الروايات لأن العرب كانوا كثيرا ما يتخدون أسماء الحيوانات ألقابا لهم ونسبا لأسباب اعتقادية. وباب الخطيب الشهرة الأولى فهي قديمة إلى إلى جده الخامس توفي 733هـ، كان خطيبا في قسنطينة ما يزيد عن خمسين أو ستين سنة وتقلد القضاء ثم أعفي منه.له مؤلف سماه المتون في أحكام الطاعون يصف فيها حالة انتشار الوباء، والعدوى التي توفي في تلك السنة. ينظر: ابن قنفذ، الفارسية، ص. 39.

2- الشهرة الأولى فهي قديمة إلى جده الخامس توفي 733هـ، 1333م كان خطيبا في قسنطينة ما يزيد عن خمسين أو ستين سنة وتقلد القضاء ثم أعفي منه.له مؤلف سماه المتون في أحكام الطاعون فيها حالة انتشار الوباء، والعدوى التي توفي في تلك السنة. . ينظر الفارسية، ص ص. 39- 40.

3- أحمد التمبكتي نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط1(1433هـ/2004م)ج1، ص. 109.

4-المصدر نفسه، ص. 104.

5-الجامع الكبير هو أكبر مسجد بقسنطينة تم بنائه في القرن السادس الهجري، ينظر محمد المهدي بن علي شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ مدينة قسنطينة، الجزائر، 1400 - 1980، ص. 84.

كانت ولادته بالنسبة لعمر أبيه، في سن متأخرة، لأنه ولد وأبوه في السادسة والأربعين[2]، بدأ تعليمه الأولي في مسقط رأسه على يد والده الذي توفي وابنه مازال لم يبلغ العاشرة من عمره فكفله جده يوسف الملاري[3] لأمه واعتنى بتربية حفيده عناية خاصة.

اشتهر بابن الحطيب وبابن قنفذ وسبب شهرته الأول أن جده تولى الخطابة مدة خمسين[4] أو ستين سنة[5] في مدينة قسنطينة ثم تولاها من بعده ابنه، أما شهرته بابن قنفذ وهي شهرة عائلته – قديمة.

لقد تحدث ابن قنفذ على أسرته من جهة والده ومن قبل أمه، وكان أشد تعلقا من جهة أمه، لأنه أدرك جده لأمه وأما جده لأبيه فلم يدركه، ولهذا نجده يتحدث عن عائلة أمه بإسهاب واعتزاز كبير كما يظهر ذلك في "أنس الفقير".

فأبوه يذكره تارة باسم حسن وتارة باسم حسين والصواب الأول كما جاء بها في الأنس وفي الوفيات أما شجرة النور فقد ذكره باسم حسنين كما ورد في الإعلام واختاره حسين[6].وقد تكررت ترجمة ابن لوالده وجده لأمه فقد تقلد عليها ابتداء فوالده تلمذ على جده لأمه ولقد استفاد منه

بنو قنفد أو القنافدة:

سمي المؤلف على عائلته التي اشتهرت بابن القنفذ أو "القنافذة" واشتهارها بهذا اللقب لا يعلم على حد التجريد لكن يحتمل احتمالا قريبا أنه من بني قنفد من بني عدنان وهم بنو قنفد بن حلاوة بن سبيع ابن أشجع وهو اسم لجد له لقب بهذا اللقب، كما ذكر وفاة جده في وفياته بهذه الصيغة على بن حسن ابن قنفذ.كما جاء في أنس الفقير حين ذكر والده أنه الخطيب الحسن ابن الخطيب من بني القنفد. وهذا هو المتعارف عليه في اسم هذه العائلة. كما يعرف عند طائفة غالبية كنيته بأبي العباس أحمد ابن الخطيب فهو معروف بهذين اللقبين كما أشار لذلك صاحب نيل الابتهاج إذ قال أنه أحمد ابن الحسن ابن علي الشهير بابن الخطيب.

---

[1] - ابن قنفذ، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.3، 1980، ص. 7.

[2]- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 53.

3- هو الشيخ يوسف بن يعقوب الملاري كان رجلا عالما متصوفا توفي سنة 764، وكان في طريق التصوف، قال عنه ابن قنفذ" أدركته صغيرا وتبركت به"، نسبه لملارة توجد بجيجل. ينظر شرف الطالب، ص. 32.

4- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 47.

5- قال ابن قنفذ في أنس الفقير في معرض الكلام عن جده"وتردد في الخطابة مدة تقرب عن ستين سنة وفي الوفيات سنة733هـ وقال"وكانت مدة خطبته بقسنطينة نحوا من خمسين سنة، ينظر: "أنس الفقير"ص. 48.

[6] - مخلوف، شجرة النور الزكية، ص. 216، وينظر: أنس الفقير، ص. 42.

أما شهرته بابن الخطيب ظاهرة السبب لأن والده تولى الخطابة وجده كذلك مدة تربو عن الستين سنة كما في أنس الفقير وفي الوفيات.

كما أن هذا اللقب كان تأسيا بأهل المشرق الذين إذا تولى أحدهم سلوك الخطابة أو تولاها لقب بها ولكثرة هذا اللقب بالمشرق ابن خطيب في كل بلد على بلده فقالوا الخطيب البغدادي وخطيب داربا ولسان الدين بن الخطيب.أي من الخطابة.

إخوته:

يظهر أن ابن قنفذ[1] كان وحيد أبيه من الذكور حيث يذكر أن أخواته البنات تعلمن عن عدة شيوخ ويذكر في أنس الفقير أن والده رحمه الله جلب لهن من يعلمهن القرآن حتى ختمه مع شرح الرسالة.

كما أن والده رحل في طلب العلم كما ذكر ابن قنفذ. وهذه الرحلة كانت قبل سنة (745 هـ ،1344م) ولوالده مؤلفات فلو كان له أكثر من ذلك لحرص ابن قنفذ على ذكرها فالأول هو "المعون في أحكام الطاعون" "ذكر سبب الوباء وأحكامه الشرعية" والأحاديث الواردة فيه، وقد ذكر سبب اختلاف الطلبة في سبب هذا الوباء.

وفاة أبيه:

ذكر ابن قنفذ في أنس الفقير أن أباه توقع وفاته بهذا الوباء وهو الذي ألف منه كتابه "المعون في أحكام الطاعون" وبذلك أوصى بتكاليف دفنه كما كان من بين ما أوصى أن ترد دابة كان أعطاها له أبو الحسن المريني.[2]

أما عن جده علي ابن حسن ابن القنفد (644 هـ ،733هـ) (1246م-1332م) ترجم له حفيده في الوفيات وفي أنس الفقير.[3]

إن اتصال ابن قنفذ أو عائلته بالحفصيين أرباب السلطات منذ نشأتها تم وجود هذه العائلة بمركز حساس وهو قسنطينة جعل الحفصيين ينظرون إليهم نظرة خاصة فقد أغدقوا عليهم في المدد المادي وهذا ما عابه كثير من أهل بلدهم على ثرائهم رغم توارتهم لهذا الثراء من الجد إلى الحفيد.

أسرة ابن قنفذ (العائلة الملارية).

تعتبر هذه العائلة محط اعتزاز وامتنان كبير من قبل ابن قنفذ فقد أقام وأشاد في كتابيه الفارسية وأنس الفقير، لأنه عاش في كنف جده لأمه يوسف بن يعقوب الملاري وكذا الصلاح الذي عرف به جده.

---

[1] ـ ابن فنقذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 48.

[2] ـ المصدر نفسه، ص. 50.

[3] ـ ابن قنفذ، أنس الفقير، ص29.

وفي أنس الفقير يبرز امتداده للشيخ وهذا التأثير الصوفي جعل من الأنس رحلة زهدية صوفية لرجال الصوفية بالمغرب والانتفاع بدعواتهم.

وقد كان جده أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الملاري وعائلته الملارية من كبار المتصوفة، واشتهروا بالفتيا والقضاء كما كان لهم اتصال واسع بالسلطة الحاكمة وهذا ما سهل لهم ومكنهم من لقاء الكثيرين من علماء عصرهم، وأكسبهم تراثا علميا واسعا، وهذا ما سهل لابن قنفذ الأرضية العلمية التي أهلته ليكون من كبار علماء عصره، كما كان جده مكلفا من قبل السلطة الحاكمة باعمال الصلح والفضل في القضايا الحادثة.[1]

2- رحلته في طلب العلم:

إذا كانت للرحلة فوائد كثيرة فإن أعمها نفعا وانتشارا ما يسجله الرحالة من مكاسب وامتيازات ومستجدات صادفها، ليدونها أو يرويها بعد ذلك مشافهة وكذا أخبار كل من التقى من العلماء والفقهاء والصالحين، كما يصف ما صادفه في تنقلاته وسفرياته من الفائدة والمتعة، وكان المستفاد من هذه الرحلات والغاية منها: اكتشاف المجهول والتطواف[2] في بلدان عدة. ومن ثم فإن الرحلات التي يقوم بها العلماء قسمان منها ما هو للسياحة ومنها ما هو في طلب العلم، و نوع ثالث وهو الرحلة الزيارية التي اشتهر بها العلماء والفقهاء المتصوفة المغاربة وعادة ما كانت تُعنى بزيارة الأولياء والصالحين، مع الإشارات إلى كرامات الأولياء وفضائلهم وزيارة أضرحتهم، فتركوا بذلك صفحات مشرقة عن رجال أفذاذ كانوا مندسين فعرفوا بفضل الرحلات الزيارية التي ساهمت في إبراز تاريخ الحياة الدينية الممزوجة بالتصوف.[3]

ومن بين هؤلاء الرحالة المشهورين دووا المكانة المتميزة في هذا المجال "ابن قنفذ القسنطيني". فتكوينه العلمي والديني على يد كبار العلماء المتصوفة خاصة أبوه وجده لأمه اللذان كانا من كبار المتصوفة فقد أتاح له هذا الوسط الأسري تكوينا روحيا وأدبيا نمته رحلاته في طلب العلم ولقاؤه بكبار العلماء والفقهاء.

وإذا كانت قسنطينة قد أنجبت علما فذا ومؤرخا كبيرا وفقيها متصوفا فإن مدينة فاس[4] بالمغرب قد تركت بصمات واضحة في شخصيته وساهمت في عطائه بحكم انتسابه إلى حاضرتها العلمية وارتشافه على أيدي علمائها فالمغربين الأوسط والأقصى وحتى الأدنى يفاخرون به وبما ترك من تراث

---

[1] - ابن قنفذ، أنس الفقير، المصدر السابق، ص ص. 62-63.

[2] - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1999، ص. 11.

3- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف، المرجع السابق، ص ص. 42- 43.

4- محمد المهدي بن عالي شعيب، أم الحواضر، المصدر السابق، ص 46.

ظل ولازال ينتفع به إلى يوم الناس هذا.

وهذه الرحلة التي نهل خلالها من العلوم نقليها وعقليها أكسبه موسوعية علماء عصره بجداره فهو فقيه متصوف ومؤرخ فلكي رياضي وأديب.

فقد تبوأ الشيخ مقاما جليلا بين أهله وبني قومه وحملة العلم وأهله مذ صباه في بيئته التي كانت سخية بأسباب العلوم الدينية واللغوية والمعارف الثقافية التي كان لها تلميذا نجيبا وطالبا ذكيا يستدرك الآفاق ويستقرب الآمال آخذا بأسباب الجد وأساليب الاجتهاد والتحصيل بعلم مشايخه الأصيلة الممتدة إلى أعماق التراث الغربي، والدي أعطى ابن قنفذ دفعا قويا إلى شد الرحال طلبا للاستزادة من العلوم قاصدا العديد من بيوتات العلم داخل قسنطينة وخارجها، والتي كانت بلاد المغرب الإسلامي[1] تعج بها بفضل ما كانت تتمتع به من مشايخ العلم ذووا الشهرة والمكانة العلمية، قائمة على مناهج العلم والثقافة ملتمسين غداء عقولهم ونفوسهم وخواطرهم، وتتنوع الصلات بين طلاب العلم وشيوخه والمتفقهين عامة، وقد سدت هذه المدارس والمراكز العلمية فراغا كبيرا لما كان يعانيه سكان هذه الحواضر العلمية من نقص وحرمان.

ولما اشتد عوده وقويت معارفه في علوم اللغة والشريعة، تدبر أمره في الترحال إلى إحدى المعالم الإسلامية العلمية الكبرى، فكانت فاس وجهته الأولى، والتي كانت قبلة طلاب العلم وحتى العلماء، إذ كانت تعتبر أهم المراكز العلمية التي كان يلتقي فيها طلاب العلم ورواده لتلقي مختلف العلوم وتبادل الفتوى وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية.

وقد مكنته رحلته إلى فاس من الاستزادة من علوم الفقه والتفسير وباقي الفنون، فصحح فيها علومه وأكد توثيقها وأعاد قراءة ما كان يحمله منها، فحدق في معظمها ونبغ وختم مجملها فنال الإجازة في التدريس والقضاء.

كما وجد في رحلته هذه تحقيق ما كان يرجوه في بلوغ هدفه، ونهل العلوم وتثبيت قواعدها وأصولها، مما أكسبه هذه المكانة، إذ كان له السبق في عدة منها، والتفوق العلمي، والدرجة العلمية.

بداية الرحلة:

نستشف مما سبق ذكره أن التحصيل العلمي الذي تلقاه ابن قنفذ في مدينة قسنطينة منذ طفولته أكسبه نجابة مبكرة على يد جده وبعض الشيوخ نذكر منهم حسن بن خلف بن باديس، حسن بن أبي القاسم بن باديس.[2]

---

1 - ابن قنفذ، الفارسية، ص ص 54- 55.

2- ينظر، ابن مريم، المصدر السابق، ص 123، ومخلوف، شجرة النور الزكية، المصدر السابق، ص 154.

وقد أهله هذا التحصيل المبكر للعلم على التوجه نحو المغرب الأقصى لطلب العلم، فتوجه أولا نحو تلمسان عاصمة بني زيان[1] ثم إلى مدينة فاس عاصمة بني مرين حيث استقر به المقام في جامع القرويين وبه أخذ يتعمق في دراسة العلوم التجريبية والتجريدية، ويتوسع فيها لمدة تزيد عن ثماني عشرة سنة تلقى فيها قسطا وافرا من العلم بمختلف مشاربه، والتقى بكبار علماء عصره وأقطاب التصوف وتبادل الزيارات معهم حيث نزل بفاس،[2] وكان يزور بها أحد رجال التصوف وهو أبو العباس أحمد بن عاشر،[3]وبعد وفاته لم ينقطع عن زيارة ضريحه[4] وكان كثير التواجد والتردد على مدينة دكالة،[5] والتي كان يعقد بها كل سنة مؤتمرا صوفيا يحضره رجال التصوف، وقد وصف هدا المؤتمر حيث يقول:"وكان الاجتماع في شهر ربيع الأول المبارك الأسعد سنة (769هـ،1368م)، وحضره لا يحصى عده من الفضلاء.[6]

كما زار مدينة مراكش ومنزل ابن تومرت[7] شيخ الموحدين بهنتة،[8] وزار العديد من النواحي والأقاليم تمكن من خلالها على تحصيل علوم كثيرة حيث صار من المالكية البارزين في المغرب فعين في القضاء بمدينة دكالة سنة (769هـ ،1365م)، وظل بها حتى سنة (776هـ ،1375م) حيث قرر بعدها العودة إلى أهله وبلده .

عودته إلى قسنطينة:

بعد رحلاته المتعددة ونهله من شتى العلوم بالمغرب قرر ابن قنفذ العودة إلى مسقط رأسه قسنطينة بعد رحلة قاربت ثماني عشرة سنة التقى بها الكثير من العلماء وتتلمذ على أيديهم وتقلد مناصب رفيعة لدا كانت عودته إلى قسنطينة مفعمة بالحيوية والنشاط، وهدا ما جعله يحضى باهتمام الدبلاط الحفصي وسرعان ما استدعي ليتولى عدة وظائف وخطط سامية بقسنطينة، فمر مثل أسلافه بالخطابة بجامع القصبة وجلس للإفتاء والقضاء والتدريس،

---

1 ـ ابن قنفذ، شرف الطالب، ص 35.

2- **فاس**: مدينة مغربية بها خيرات، وصنائع، وهي كثيرة العيون، يحدها شرق جبل مديون. ينظر: ياقوت الحومي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر لبنان، 1957، ج4، ص 230، ينظر حسن الوزان وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1983، ص 207.

3- هو ابن عاشر أحد علماء وفقهاء المالكية البارزين، اشتهر بمختصره في الفقه المالكي المسمى المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، وهو المعروف بمتن ابن عاشر. ينظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص. 93.

4- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص. 33.

5- مدينة مغربية مكث بها قاضيا لمدة تزيد عن 15 سنة. قصدها في أول رحلته، ينظر حسن الوزان، المصدر السابق، ص. 147.

6- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 62

7- المصدر نفسه، ص. 63-64.

8- ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. 34.

واهتم بالتأليف حتى أدركته المنية سنة(810 هـ ،1408م).[1]

إن من جملة ما كانت تستهدفه رحلة ابن قنفذ في المغرب هو حرصه الشديد على الاتصال بالشيوخ والأعلام ورموز العلم خاصة المتصوفة، فقد أشار إلى عدد كبير منهم ممن التقاهم للتتلمذ والأخذ عنهم، وممن تبرك بهم مما داع بين الناس من أخبار صلاحهم وبركتهم، وهكذا ذكر حوالي ثلاثين علما من الدين حصل اللقاء بهم خلال رحلته، فكان يصف أحيانا من التقاهم دون ذكر أسمائهم نظرا لكثرتهم.[2] ويذكر في فوله سنة (768هـ ، 1365م)"ولقيت بها أخيارا ورأيت فيها شيخا منقطعا في مغارة للعبادة والناس يتبركون به،[3] ويذكر بأنه حينما كان بمدينة سلا خرج إلى ساحل البحر فوجد "على البحر أخيارا قوتهم من صيد الحوت لا ينزلون منها أبدا".[4]

كما أنه كان يصف هؤلاء الدين لم يصرح بأسمائهم بعبارات مبهمة كعبارة الأخيار أو الفضلاء أو الصلحاء والعدول وما إلى ذلك.

وتعد مدينة فاس هي المرحلة الهامة في رحلته ففيها التقى شيوخ العلم والتصوف ولازم العلماء والزهاد فاكتمل بدلك تكوينه العلمي والصوفي معا وحصل له اللقاء فيها بالكثيرين منهم الشيخ محمد عبد الله الونغيلي[5] الضرير وهو من أشهر علماء فاس.

ومنهم أبو علي الرجراجي وهو علم متصوف لكن شهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم لدلك كانت استفادته منه عظيمة، أخد عنه العلم والسلوك معا، ولقد لخص هذه الفائدة بقوله: "لازمته وقرأت عليه كتاب في الفرائض وحضرت معه مجالس العلم وانتفعت به كثيرا وكنت أقصده في بيان ما يعسر فهمه".[6]

3- شيوخه:

تعتبر المصادر التي تناولت شيوخ ابن قنفذ قليلة فبعضهم اقتصر على ذكرهم، ولم يسهب في التفضيل في ذلك، وتبقى كتب ابن قنفذ المرجع في معرفة أكثر هؤلاء فقد حاولت إحصائهم مهما صغر أو كبر دورهم في تكوينه العلمي وأخص بالذكر كتاب الوفيات الذي ذبل فيه كتابه شرف الطالب وكذا كتاب أنسر الفقير وعز الحقير الذي دون فيه الكثير ومن خلال هذين المؤلفين وغيرها يمكن معرفة مشايخه أو بعضهم بدءا بالقسنطنين منهم خاصة والده

1- المصدر نفسه، ص. 71.
2- ابن قنفذ، أنس الفقير، ص 46.
3- المصدر نفسه،ص 65.
4- المصدر نفسه ص84.
5- الغبريني، عنوان الدراية، ص 24
6- ابن قنفذ، أنس الفقير ص77.

وجده لأمه وحده لأبيه ثم مشايخه الأفارقة (تونس) ثم المغاربة والأندلسيين ومن لقبهم بتلمسان وقد أكثر ابن قنفذ من الأخذ عن الشيوخ ورحل لذلك بعد أخذه عن شيوخ بلده قسنطينة وأطول هذه الرحلات كانت بالمغرب التي لبث فيها عن ما يربو ثمانية عشر سنة.

كما يشترك في الاسم والكنية مع العائلة الباديسية شيخا ابن القنفذ وهما حسن بن خلف بن باديس وحسن بن أبي القاسم بن باديس. وكلاهما كانت له شهرة علمية في قطر إفريقية الذي كانت قسنطينة مسقط رأسهما، وكلاهما له رحلة إلى المشرق وسبق أحدهما الآخر بالوفاة ونترجم لهما على حسب ذلك.

شيوخه المغاربة:

1- حسن بن خلف بن باديس:

هو حسن بن خلف الله[1] بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي القسنطيني (707-784هـ/1307-1382م)، أحد من تمثل فيهم العلم والرواية في قسنطينة، جمع بين الطريقة الإفريقية، والطريقة المشرقية، فتلقى عن أفارقة هم: محمد بن محمد بن غريون، البجائي المتمتع بالرواية السالك مسلك الدارية عالم بجاية ومفتيها (731هـ/1330م)، وابن عبد السلام محمد بن عبد السلام بن يوسف قاضي الجماعة بتونس(676-749هـ/1277-1348م). وابن جابر الوادي آشي التونسي، محمد بن جابر بن محمد (673-749هـ/1274-1347م) ومن أهل المغرب وغيره: ابن عبد الرزاق الجُزُولي أبو عبد الله محمد بن علي المتوفي بفاس في (785هـ/1356م).

2- حسن بن أبي القاسم:

هو ابن عم السابق وابن خالته أبو علي الحسن بن باديس (701-787هـ/1301-1385م). أخذ عن ابن غريون المتقدم وناصر الدين المشدَّالي[2] أبي علي منصور بن أحمد بن عبد الحق (631-731هـ/1233-1330م) وابن عبد الرفيع إبراهيم ابن حسن بن عبد الرفيع الربعي (643-733هـ/1239-1332م) القاضي، وله رحلة أخذ فيها عن جماعة من أهل المشرق منهم صلاح الدين العلائي: أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي (694-761هـ/1294-1359م)، وبلغت شيوخه سبعمائة.[3]

وخليل المكي (760هـ/1358م)، وابن هشام عبد الله يوسف جمال الدين (708-761هـ/1308-1359م) وتولى ابن باديس قضاء الحضرة الإفريقية وكان به انقباض قلّل الأخذ عنه.

---

1 ـ ابن قنفذ، الفارسية، ص ص 54، 55.

2 ـ ابن قنفذ، شرف الطالب، ص 29.

3 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج6ص 190. ابن قنفذ، الوفيات، ص. 57-58.

3- الشريف التلمساني:

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الشريف التلمساني (710-771هـ-1310-1369م) العلامة الذائع الصيت، له شرح الجمل وصار يعرف بشارح الجمل، وقد أطنب في ترجمته أحمد بابا في "نيل الابتهاج"[1] وألف في ترجمته تأليفا خاصا سماه بالقول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف. ولم يحقق ابن القنفذ وفاته في سنة (771هـ-1369م) إذ يقول :"غالب ظني أن وفاته في سنة 771هـ وهي التي ذكرها غير واحد منهم الونشريسي في وفياته، وابن السّراج في رحلته، وابن الحاج البلفيقي أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السُّلمي (681-771-1282-1369)، ابن البحر: أبو علي عمر بن محمد، وابن مرزوق محمد بن أحمد (615-781هـ-1315-1379م) وأبو عبد الله الرعيني بن سعيد، والغبريني أحمد بن أحمد بن صاحب عنوان الدراية (772هـ-1375م) وشيخه هذا ذكره على أول صفحة من كشف المغطى في تبين الصلاة الوسطى، فذكر تعريفا بالدمياطي صاحب الكتاب، ثم بعد ذلك ذكر سنده إلى المؤلف، ونص ما جاء فيه: "وتتصل روايتي عنه من طريق شيخنا المحدّث الحافظ الرواية أبي عبد الله محمد جابر الوادي آشي، ومن طريق الفقيه الأجل، الحافظ المحدث أبي البركات أحمد الغربيني".[2]

ويقول في "أنس الفقير": "ويتصل سندى بكلام الشيخ أبي مدين – رضي الله عنه- وروايتي له فإني رويته عن شيخنا الفقيه الخطيب القاضي العدل الحاج المرحوم أبي علي الحسن ابن خلف الله بن باديس من بيتات بلدنا".[3]

ويذكر أن روايته عنه متنوعة ويخص الحديث فيقول في الأنس: وهو "ابن باديس" ممن روينا عنه الحديث وغيره، وتولى ابن باديس قضاء قسنطينة وتوفي وهو يتولى قضائه، وله رحلة إلى المشرق لقي فيها أعلاما وأخذ عن أنس الدين أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (654-745هـ-1256-1344م).

4- ابن مرزوق التلمساني:

أبو عبد الله ابن الشيخ الصالح أحمد بن مرزوق التلمساني (710-781هـ-/1310-1379م) العلامة الحافظ الرحالة الخطيب،كان قلما منبريا في عواصم الإسلام لم يخطب عليه، فقد خطب على منابر الشرق والغرب فخطب في الأندلس والمغرب وتونس والإسكندرية، وكانت عدة المنابر التي خطب عليها ثمانية وأربعين.

---

[1] - أحمد بابا، نيل الابتهاج، ج.1، ص. 57.
[2] - الغبريني، المصدر السابق، ص. 43.
[3] - ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. 32.

وقد ذكره ابن القنفذ في "وفياته" وذكر أنه من أشياخنا وسماعه عليه حديث البخاري وغيره في مجالس مختلفة، وفي مجلسه جمال ولين معاملة.[1]

وذكر من تآليفه شرح العمدة، وهو من أشهر تآليفه ولم يحقق وفاته حيث قال:"توفي في غالب ظني سنة ثمانين وسبعمائة" والتحقيق أنها بعد ذلك بسنة واحدة كما ذكر ابن خلدون في خاتمة تاريخه وقد نقله صاحب نيل الابتهاج وكذلك ابن حجر في الدور الكامنة وانفرد ابن القنفذ بذكر موقع قبره بالقاهرة وأنه بين ابن القاسم وأشهب.

5- أبو محمد الزُّكُندُري:

عبد الله الزكندري (768هـ/1366م) وصفه ابن القنفذ في الوفيات بالتالي لكتاب الله تعالى دائما، وحضر دروسه في التفسير والحديث والفقه[2] وكان فائق أقرانه فيها فلم يكن مثله أحد فيها، ووصفه بأنه قاضي الجماعة بمراكش ونقل ما ذكره ابن القنفذ صاحب "نيل الابتهاج" وذكر نقلا عن الوفيات أن وفاته سنة 808هـ/1405م وهناك خطأ في التسمية، وليس ذلك خطأ من النساخ لأنه ثابت بخط المؤلف في مسودته، وجاءت نسبته هنا بأنه الزكندري، وفي النسخ المطبوعة من النيل أنه الزكنوري بالواو بعد النون وهو تحريف لأن ما في أصل النيل بخط المؤلف يوافق ما جاء في غيره من كتب التراجم.

6- أبو زيد عبد الرحمان ابن الشيخ أبي الربيع سليمان اللجائي (773هـ/1371م):

تتلمذ لأبي العباس بن البناء وحاز عنه علومه بتحقيق، واستفاد منه ابن القنفذ من علومه كما أفاده في "الوفيات"، وهو عالم رياضي اختص في علم الهندسة والهيئة والحساب وتسلل العلم من أبيه ثم إليه من بعده، لكن كانت اختصاصات الابن غير اختصاصات الوالد، فوالده كان من الفقهاء الذين كانت لهم رحلة إلى لمشرق أخذ فيها عن الشهاب القرافي.

وذكر في "أنس الفقير":"وكان شيخنا في العلوم السماوية الشيخ الفقيه أبو زيد عبد الرحمن اللجائي وهو ممن قرأ عليه.، وذكر أن سبب تعاطيه العلوم السماوية رؤيا منامية رآها فقصها على أبيه فأشار عليه بملازمة ابن البناء بعد أن كان يريد أن يكون فقيها، لأن أباه من أول من أدخل المختصر الحاجبي إلى المغرب، ومن بعض أعماله أنه اخترع اسطرلابا ملصقا في جدار والماء يدير شبكته على الصفيحة فيأتي الناظر فينظر ارتفاع الشمس كم هو وكم مضى من النهار، وكذلك ينظر ارتفاع الكواكب بالليل، وهو من الأعمال الغريبة، ومن

---

[1] ـ ابن قنفذ، الفارسية، ص 55، وينظر شرف الطالب، ص 28، وينظر ترجمته في نيل الابتهاج، ج 1، ص 45.

[2] ـ ابن قنفذ، شرف الطالب، ص 59، ينظر، الوفيات، ص 29.

هنا أثر في ابن القنفذ فألف تأليفه في العلوم السماوية ".[1]والتي يقصد بها علم الفلك.

7- أبو عمران موسى بن محمد بن معطي العبدوسي: 776هـ/1374م:

أكثر ترجمته في "نيل الابتهاج" عن ابن الخطيب القسنطيني، قال ابن الخطيب:"كان له في الفقه مجلس لم يكن لغيره في زمانه لازمته في المدونة والرسالة مدة ثمان سنين" وقال عنه في "أنس الفقير": "شيخنا ومفيدنا طريقة الفقه الشيخ الحافظ مجلسه بفاس أعظم المجالس يحضره الفقهاء، والمدرسون والصلحاء وحفاظ المدونة،[2]يحضره من نسخها بيد الطلبة نحو الأربعين سمعته يقول:"لي أربعون سنة نقرى المدونة" قيد عنه تقييدا كبير في عشرة أسفار على المدونة، وله تقييد آخر عليها، وله تقييد على الرسالة.

8- أبو العباس أحمد القباب: 779هـ/1377م:

لازم ابن القنفذ درسه كثيرا في مدينة فاس في الحديث والفقه والأصليين (أصول الدين وأصول الفقه). وهو من الأئمة الحفاظ ، ومن صدور الفقهاء ، اجتمع بابن عرفة في تونس لما كان قاصدا الحج وانتقد عليه شدة الاختصار في مختصره الشهير، لأنه لا يفهمه المبتدي ولا يحتاج إليه المنتهي، وشرح بيوع ابن جماعة التونسي[3] وله شرح قواعد القاضي عياض وهو كتاب طار صديته، واشتهر واعتمد ومن أشهر تلاميذه الشاطبي، وابن القنفذ، واعتمد صاحب "نيل الابتهاج "[4] مما اعتمد في ترجمته على رحلة ابن القنفذ ووفياته.

9- أبوا محمد عبد الله الوانغيلي: 779هـ/1377م:

يترجم ابن القنفذ بشيخنا ومفيدنا ويذكر أنه أخذ عنه المختصر الحاجبي، وهو ممن أخذ عن أبي الربيع اللجائي، وهذا هو الذي أدخل المختصر المذكور المغرب، كما أخذ عنه المدونة، واعتمد أحمد بابا في نيل الابتهاج في ترجمته الوانغيلي ما ذكره ابن القنفذ في رحلته ووفياته وفي" أنس الفقير"[5]: شيخنا الفقيه الصالح من تلامذة أبي الربيع اللجائي الذي قرأ على القرافي، وقال:"الوانغيلي يفهم كتابي أبي الحاجب الأصلي والفرعي".

10- أبو عبد الله محمد بن حياتي: 781 هـ ،1397م:

ذكره ابن قنفذ في الوفيات وذكر أخذه عنه وإنصافه حتى أنه لما طلب منه إقراء الجزولية قصد ابن الشماع وقرأ عليه استفتاحها لأنه في المنطق.

---

[1] ـ ابن قنفذ، أنس الفقير، ص ث، وينظر شرف الطالب، ص 59.
[2] ـ ابن قنفذ، الفارسية، ص 59.
[3] ـ ابن قنفذ، الفارسية، ص 60.
[4] ـ أحمد بابا، نيل الإبتهاج، ج 1، ص 56.
[5] ـ ابن قنفذ، أنس الفقير، ص ت.

11- ابن الشماع أحمد بن محمد الخزرجي شهر بابن الشماع:

المراكشي نزيل فاس ذكره ابن القنفذ عرضا في ترجمة شيخه ابن حياتي[1] الفاسي المتقدم حين تكلم على إنصافه واعترافه لما طلب مه إقراء الجزولية وهي تحتاج في استفتاحها إلى علم المنطق للكلام فيها على الجنس والنوع، ومن أجل ذلك ذهب إلى ابن الشماع قرأ علي استفتاحها لمعرفته بفن المنطق، جرى كل ذلك وابن القنفذ، حاضر، ولم يذكر وفاته ولعل ذلك لأنه بقيد الحياة إبان تأليف الوفيات لأنه انتهى منها 807هـ/1404م أو أنه لم يقف على وفاته، ولم يرجح الأول أن ابن الأحمر في فهرسته ذكر أنه من المعمرين، وكان ابن الشماع بمعرفة علم المنطق.

وما ذكره ابن القنفذ اعتمده أحمد بابا في النيل وزاد عليه ما ذكره ابن الأحمر في فهرسته بوصفه بالأصولي المنطقي وأنه أجازه وأن شيوخه ابن البناء العددي وابن جابر القيسي ونقل عنه ابن القنفذ في الأنس، وكانت له بعض قراءاته عليه بفاس، وبها توفي فلذلك عددناه من شيوخه الفاسيين.

شيوخ الأندلس:

12- أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحَسَني السَّبتي (697-791هـ/1297-1359م):

الشهير بالشريف الغرناطي شارح مقصورة حازم القرطاجي المعروف بالحجب المستورة، وهو شيخه بالإجازة، وقد تمتع بمجلسه، ومن أمانة ابن القنفذ أنه درس عليه، وإنما تمتع بمجلسه، ولعل ذلك في قدومه إلى المغرب، ولا يخرج ذلك عن أن يكون بين سنة (759هـ،1357م)، وبين سنة وفاته لأن ابن قنفذ لم يدخل المغرب إلا في سنة(759هـ، 1357م) فاجتماعه به كان اجتماعا بمسافر دخل المغرب وكان ذلك ولا شك في أخريات حياة الشريف وأما دخول ابن القنفذ الأندلس فموضع شك.

13- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الغرناطي (713-776هـ/1313-1374م):

ذكر ابن القنفذ وفاته في "الوفيات"[2] وأنه توفي شهيدا بمدينة فاس، وانتفاعه بمجالسه في سماع جملة من مؤلفاته بقراءة ابن الخطيب، ولم يذكر ابن القنفذ متى أخذ عن ابن الخطيب أكان ذلك مدة مقام ابن الخطيب الأول حين كان مع الملخوع، وذلك بين سنتي (761-763هـ، 1359-1361م) أو في قدمته الثانية بين سنتي (772-775هـ/1370-1373م) لأن سنة 776هـ ،1374) في فاتحتها كان مقتل ابن الخطيب. ولم يأخذ عن ابن الخطيب كبقية الشيوخ المغاربة الذين

---

[1] ـابن قنفذ، الفارسية، ص 69.

[2] ـ ابن قنفذ، الفارسية، ص 61. وينظر: الوفيات، ص. 7.

أخذ عنهم مؤلفاته، ولهذا يقول ابن القنفذ :"وسمعت جملة من تواليفه بقراءته هو في مجلس مختلفة"، ولعل ذلك في إقامته في المغرب الأولى والثانية

شيوخنا الأفارقة:

14- محمد ابن الشيخ أحمد البرطني الأنصاري التونسي: (703-793هـ/1303-1390م) يكنى بأبي الحسن وأبي عبد الله: محدث تونس، أخذ عن والده أبي العباس وعن ماضي بن سلطان خادم أبي الحسن الشاذلي (718 هـ /1318م) عن قرابة من مائة وعشرين سنة أخذ عنه جميع أحزابه، وأجازه من أهل المشرق نور الدين ابن فرحون(698-746هـ/1298/1345م) وذكر في "الأنس" عند كلامه على حفظ الأدعية أن وأولاها أدعية من يقتدي به، وأدعية الشيخ الصالح الولي العارف أبس الحسن علي الشاذلي، أخذتها عن الخطيب أبي الحسن محمد بن أحمد الأنصاري شهر البطرني شهر عن الشيخ أبي العزائم ماضي بن سلطان عن الشاذلي نفع الله به ورضي عنه.، ويحقق في الوفيات أن كنيته أبو الحسن لأنه أخبره بذلك.[1]

15- أبو عبد الله بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (716-803هـ/1316-1400م) :[2]

رأس العلماء بتونس أخذ عن اب عبد السلام وابن هرون والزبيدي والآبلي، وتولى الإمامة والخطابة بجامع الزيتونة مدة خمسين سنة، وحج سنتي (792-793هـ/1389-1390م) وحين زار المدينة كان نزوله على إبراهيم ابن فرحون صاحب الديباج، وله المختصر المشهر الذي ذاع صيته بسببه، وأخذ عنه ابن القنفذ كما في الوفيات سنة(777هـ/1375م) وحين قدومه إلى تونس، وقرأ عليه بعض مختصره حين ذاك وناوله إياه وكان تلقيه عليه بدويرة جامع الزيتونة، ووصفه حين ذاك بالاجتهاد في العلم، والقيام بالخطبة. ثم لقيه مرة ثانية قبل وفاته بسنة وهو إذ ذاك بع ضعف وبض نسيان، وأخذه عن ابن عرفة كان تكميليا لأن قراءته كانت بالمغرب فهو إلى الإجازة له أقرب من القراءة.

4- تلاميذه:

ويبدو أنه لم يجلس له قراء ومن أخذ عنه منهم لا يخرج عن أحد الآخر. إما أن يكون كاتبه فأجازه كتبه كما فعل بعض أهل المشرق أو أن يكون رحل إليه فأخذ عنه ثم عاد إلى بلده بما أخذ أجازه كما هو الشأن بالنسبة لتلميذه ابن مرزوق.

---

[1] - ابن قنفذ، شرف الطالب، ص 32.

[2] - ابن قنفذ، الفارسية، ص. 63.

وبعد التعرف إلى ابن قنفذ والتعرض لمسيرته العلمية الواسعة يتضح أن ابن قنفذ ومن خلال مركزه العلمي وسعة اطلاعه لابد وأن يكون لة تلامذة كثيرون عبر الأقطار التي زارها ونهل منها مبادئ العلم وجلس للتدريس بها ولكن المصادر لم تذكر منهم إلا تلميذا واحدا كان ملازما لابن قنفذ وصار من العلماء النجباء فيما بعد وهو الإمام ابن مرزوق الحفيذ وهو العلامة محمد ابن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني العجيسي المالكي ابن الحفيد[1]ولد سنه(766هـ، 1364م) بتلمسان تلقى العلم في بلده ثم رحل إلى المشرق آنذاك، كان آية في الفهم والحفظ وجامعا بين المنقول والمعقول والرواية والدراية. توفي سنة (842هـ ، 1438م) بتلمسان.[2]

5- وظائفه وامتيازاته ومكانته:

لقد ورث ابن قنفذ عن والده وجده وظائف الجامع الكبير بقسنطينة، ومن الوظائف التي تقلدها في بدايته هي التدريس وإمامة المصلين والخطبة على المنبر والسهر على أوقافه، فأما التدريس فقد كان يقوم به في حياة والده وقدّمه جده[3] رغم صغر سنه في المسائل العلمية لبكرة نبوغه.

6- وفاته:

أجمعت المصادر التي ترجمت لابن قنفذ على سنة وفاته بأنها كانت سنة (810 هـ 1407م)، وأول من ذكر ذلك ابن القاضي[4]، أما في ذرة الحجال فإنه أثبت أنه كان على قيد الحياة سنة (807هـ، 1404) ثم ذكر وفاته سنة (810هـ، 1407)م كما ذكر معاصره أحمد بابا[5]، اعتمادا على وفيات الونشريسي ومن الطبيعي أن يتبع في ذلك المتأخرون على نفس المنوال لأن غالبيتهم يعتمد على نيل الابتهاج لانتشاره واشتهاره بينهم وهو ما جاء في تعريف الخلف والأعلام وغيرها وقد انفرد الزركشي في تاريخه بأنه توفي سنة(809هـ 1406)م ونصه ما يلي: " وليلة الجمعة الثانية عشر لربيع الأول سنة (809هـ 1406)م توفي قاضي قسنطينة أحمد بن الخطيب شارح رسالة ابن أبي زيد وشارح جمل الخونجي وغيرها، وعند التحقيق لا نشك أن ما ذكره الزركشي هو الصواب،[6]لأنه حقق وفاته ليلة وشهرا وسنة، ولأن وفاة ابن قنفذ لابد أن تكون

1- عائلة بن مرزوق اشتهرت بالعلم وبرز منها علماء كثيرون، وأحصت منهم الدكتورة ماريا حيبوس بيغيرا في تحقيقها ودراستها عن كتاب" المسند الصحيح" عددا كبيرا وأوضحت شجرة نسب المرازقة الذي يرجع إلى قبيلة عحيسية التي كانت تقطن ضواحي قلعة بني حماد. ينظر، مخلوف، المصدر السابق، ص. 256.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، ص. 77. وينظر:ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 35.

3- ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 35.

4- ابن القاضي جذوة الاقتباس، ص. 80.

5 -أحمد التمبكتي، نيل الابتهاج ، ص. 75.

6- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص.41.

في سجلات الحفصيين، لأنه كان قاضيا في قسنطينة، والزركشي مطلع على هاته السجلات، وغلط في ذكر وفاته من أرخه من علماء المغرب لاختلاف الأقطار، إذ هم من قطر المغرب، وابن قنفذ من قطر إفريقية. فلا غرابة أن يتأخر وصول خبر وفاته إليهم.[1]

المبحث الثاني: عصر ابن قنفذ

بقيام دولة الأغالبة انقسم المغرب إلى ثلاث دول كبرى، أقدمها دولة الرستميين الخوارج في المغرب الأوسط، وأوسطها دولة العلويين الأدارسة في المغرب الأقصى، وأحدثها دولة الأغالبة السنية في إفريقية والمغرب الأدنى بصرف النظر عن دولة سجلماسة الصحراوية وهي الرابعة.

وكان ذلك بداية عهد جديد يضم مذاهب سياسية ودينية متعادية قد زاد في بعض الاضطراب بالمغرب الإسلامي، وعرفت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل هذا الوضع الجديد بل ترتب عليه زيادة انتشار الإسلام في البلاد، وأدى إلى ما يمكن تسميته بعصر النهضة.فأدى ذلك رغم ما ساد من عوامل الضعف إلى تكوين شخصية ذاتية وطابع مميز لكل إقليم،[2] وأوجد نوعا من اللامركزية في القيام بالعمل الحضاري رغم هذا الاستقلال عن المشرق الذي يعد أصل هذه التيارات، إلا أنها ظلت مرتبطة به عن طريق الهجرة المستمرة، وقد عملت هذه التيارات دون قصد جنبا إلى جنب في مرات عدة.

وهذه الهجرة كانت تؤكد اتصال المغرب المتطرف بمركز الخلافة كما كان الحال بين المشرق العباسي وبلاد الأندلس الأموية.

وبهذا فإن عصر ابن قنفذ من ولادته إلى تاريخ وفاته[3] (740-810هـ، 1339، 1407م) سنتحدث فيها عن المحيط العام الذي نشأ فيه وترعرع.

وقد عاش ابن قنفذ مدة سبعين سنة قضى معظمها أو نصفها الأول بالمغرب الأوسط في قسنطينة قبل رحلته في طلب العلم بفاس بالمغرب الأقصى وهما متشابهان في التقاليد والعوائد ومتمذهبان بمذهب واحد.

كما أن الظروف السياسية التي عاشها ابن فنفد في المغرب الأوسط تمثل الفترة الأولى من حياته قبل رحلته لأن العامل السياسي يكون له الأثر الكبير والعميق في نفوس العلماء إذ من خلاله تتبين مواقعهم ويتحدد مسار حياتهم

1- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 84.

2 ـ المطوي، السلطنة الحفصية،ص. 476. وينظر: ابن تميم القيرواني، طبقات علماء إفرقية وتونس، تحقيق: علي الشامي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ص. 7.

3 - ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 18.

وتتأثر مناهجهم في كتاباتهم وتناولهم موضوعاتهم، وبالنسبة لابن قنفذ كان الحدث السياسي[1] نقطة تحول وانتقال من بلده ومسقط رأسه قسنطينة.

فقد تميز الوضع السياسي بالمغرب الأوسط بالتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة والثورات المنبثقة عن هذا التنافس.

ولم يكن المغرب الأقصى أحسن حالا من الأوسط عندما انتقل إليه ابن قنفذ سنة (759 هـ، 1357م) بسبب انعدام الإستقرار في الحكم وخاصة وأنها فترة اضطراب قتل فيها أبو عنان المريني[2] وتعاقب على العرش المغربي أربعة عشر ملكا في ظرف يسير لم يكن بينهم من يطمئن على نفسه أو يستطيع بالأحرى إعادة الطمأنينة إلى البلاد.

وقد دأب السلاطين المرينيون منذ وقت مبكر على الإهتمام بالشرفاء الأدارسة في إطار الأوضاع السياسية والثقافية

كانت قسنطينة خلال القرن الثامن الهجري من المدن الهامة في الشرق من المغرب الأوسط، باعتبارها قاعدة حفصية ثانية بعد تونس السلطة المركزية.

وقد فضل الكثير من سلاطين وأمراء الدولة الحفصية العيش بها وجعلوها قاعدة حربية مميزة لموقعها الجغرافي، ما أهلها للعب أدوار أساسية سياسية وعسكرية هامة في المنطقة.

كما أن كثيرا من السلاطين والعلماء في الدولة الحفصية ولدوا في قسنطينة وتعلموا بها. ويقول ابن قنفذ عن السلطان أبي فارس: "وحل البدر في شرفه ومسقط رأسه ومؤلفه لأن بقسنطينة ولادته ولادة الثلاثة من أبنائه ولها بذلك شرف على غيرها من البلدان".[3]

وقد تميزت قسنطينة بنهضتها العلمية والثقافية في هذه الفترة لم يشهد لها مثيل، ظلت على عهدها في الظروف السياسية المضطربة. ويعود ذلك لعدة عوامل منها تميز الأمراء وحكام المدن بنزعة علمية وتشجيعهم للعلم والعلماء على البحث والتدريس والتأليف وتقديرهم لرجال الفكر وعلى التسهيل بإنشاء المراكز العلمية والمساجد[4] والكتاتيب عبر المدن.وتنافس الأمراء على استقطاب أشهر العلماء من الأقطار المجاورة كالمغرب والأندلس واقتناء الكتب.

---

1 - ابن قنفذ، الفارسية ، ص. 67.

2 - هو أحد سلاطين الدولة المرينية الذين ارسوا دعامتها اهتم بالعلماء وإنشاء المدارس والزوايا، ينظر: ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، ص. 43.

3- ابن قنفذ، الفارسية ص. 193.

4 - محمد الطالي، الهجرة الأندلسية على إفريقية أيام الحفصيين مجلة الأصالة، العدد 26، السنة 1975، ص ص. 53- 54.

كما كان لموقع المدينة الذي يتوسط قطبين ثقافيين هامين هما مدينتا تونس شرقا وبجاية غربا، أثر في مرور قوافل الحجاج والعلماء والطلاب للاتجار بها وطلب العلم.[1] وبفضل هذه العوامل بدأت ظهرت أسهر وبيوتات عريقة ذاع صيتها بمحافظتها على مكانتها العلمية والثقافية كآل الفكون وباديس وآل قنفذ وآل عبدون وغيرهم، ومن بين هؤلاء وأبرزهم أبو العباس أحمد الخطيب المشهور بابن قنفذ.[2]

1- الحياة السياسية:

عرف المغرب الإسلامي وحدة سياسية كبيرة في صدر الفتح الإسلامي بعد تأسيس مدينة القيروان، هذه الأخيرة أصبحت عاصمة الغرب الإسلامي لحقبة غير قصيرة من الزمن، ودعمت هذه الوحدة السياسية وحدة عرقية وتاريخية وجغرافية إلى جانب الوحدة الدينية واللغوية التي جاء بها الفتح الإسلامي.

وبفضل هذه الوحدة تمكن المغاربة من فتح بلاد الأندلس ونشر الإسلام فيها والوصول إلى أوربا، إلى أن بدأت تظهر بوادر النزاعات الإقليمية، وتكونت زعامات محلية وقبلية في تاهرت، ورقادة، وفاس، قضت على هذه الوحدة بالمغرب الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/8م، وتمزقت الأندلس تمزقا شديدا مع ظهور دويلات الطوائف خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين على التوالي ، فعاشت شعوب الغرب الإسلامي تمزقا سياسيا وتشتتا كبيرين لعدة قرون حتى قيام الدولة الموحدية بعد ذلك خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (5- 6 هـ ، /11-12م).

فقد حظي الغرب الإسلامي في ظل هاتين الدولتين بوحدة سياسية كبيرة لمدة فاقت القرنين من الزمن (من منتصف القرن الخامس الهجري إلى بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري) اكتسب خلالها المغرب الإسلامي قوة وبأسا، حيث استطاع أن يخضع بلاد الأندلس ويوحدها ثانية بعد أن مزقتها حروب دويلات الطوائف فيما بينها.

وبعد هذه الاحداث المتوالية بدا الضعف يسري في ملكهم وتفككت وحدتهم وبدأ عزهم يزول فأعادت هاتين الدولتين للإقليم وحدته السياسية الكبرى وأعادت هيبة الغرب الإسلامي، وحققت إنجازات كبرى في الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الثقافية وخاضت معارك كبرى في الميادين السياسية ضد النصارى الأسبان وأخرت سقوط الأندلس لقرون.[3]

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 39.

[2] - المرجع نفسه، ج.1، ص. 88.

[3] - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج. 1،ديوان المطبوعات الجامعية، ص. 167.

إلا أن هذه الدول لم تعمر طويلا، حيث قضى الموحدون على دولة المرابطين، وتقاسمت عدة دويلات ملك الدولة الموحدية لاعتماد هذه الأخيرة العصبية العرقية، لذلك انهارت واضمحلت مع النصف الثاني من القرن السابع الهجري (13م) لتحتل مكانها ثلاث دول متصارعة ظهرت على مسرح الأحداث السياسية في المغرب الإسلامي وهي كالتالي:

أ- دولة بنو عبد الواد الزيانية: بالمغرب الأوسط تلمسان سنة(634هـ، 1236م)، وكانت تحكم المغرب الأوسط ودام حكمها من سنة(633هـ، إلى 962هـ .1235، 1454م)

ب- دولة بني مرين: بالمغرب الأقصى بفاس ومراكش سنة(668هـ، 1269م،) حيث كانت تحكم المغرب الأقصى ودام حكمها من سنة(668 - 762هـ 1269 - 1360م)

ج- دولة بني حفص: بإفريقية والمغرب الأدنى سنة (626هـ ،1228م،) كانت تحكم المغرب الأدنى الذي كان يشمل تونس والأجزاء الحالية من شرق الجزائر كبجاية وقسنطينة وبسكرة وتقرت وغيرها، هذا وامتد حكمها من سنة 627هـ إلى سنة 943هـ. 1229م، 1536م[1]

ولسوء حظ شعوب المغرب الإسلامي أن علاقات هذه الدويلات الثلاث كانت سيئة جدا تقودها النزعة والفتن والصراعات الداخلية والحروب من أجل التوسع الإقليمي والسيطرة والنفوذ.

إن هذا التقسيم لم يكن ليرض الجميع، لذلك جرت حروب ومعارك كثيرة حاول فيها كل طرف أن يوسع سلطانه على حساب الآخر وهكذا كانت جيوش المرينيين[2] ترحل في بعض الأوقات إلى تونس والزاب وقسنطينة كما وصلت جيوش بني حفص إلى المدية ومليانة وتلمسان.[3]

وكانت دولة بني زيان بتلمسان أكثر هذه الدويلات معاناة لاشتداد الضغط عليها من جيرانها في الشرق وهم بنو حفص، والغرب المتمثل في بني مرين، وكذا الجهة الشمالية المتمثلة في النصارى، وما زاد من حدة التوتر هو صراع الأمراء والملوك فيما بينهم في الداخل، ثم تمكن بنو حفص من زرع ثلاث إمارات حفصية في كل من بجاية وقسنطينة وعنابة.

وفي المغرب الأقصى أسس بنو مرين مدينة المنصورة بجوار تلمسان وأذاقوا أهلها الأمرين خلال حصار طويل زاد عن ثمان سنوات وعمت

---

[1] - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج.6، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، 1430، 2000، ص. 382.

[2] - المطوي، اللطنة الحفصية، ص. 84.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1998، ص. 20.

الفوضى السياسية معظم أرجاء المغرب الإسلامي وسادت ظاهرة "القتيلة" بشكل فوضوي ودموي.[1]

وإلى جانب هذا الصراع كانت هناك صراعات تنشأ بين الحين والآخر بين أفراد الأسرة الواحدة من الأسر الحاكمة فقد لعبت الوشاية وحب التسلط وشهرة الزعامة دورا كبيرا ورئيسا في إشعال نار الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، والتي كانت من أهم العوامل التي أدت إلى ضعف هذه الدول وزوالها بعد ذلك، ووقفت حائلا دون نجاح أي من هذه الدول في بسط نفوذها على كامل شمال المغرب الإسلامي بصورة نهائية.

في ظل هذه الظروف السياسية المضطربة عاش ابن قنفذ القسنطيني. وقد اتسمت هذه الفترة بتدهور واضطراب سياسي كبيرين في تاريخ المغرب الإسلامي، حيث عاشت كل دوله في فتن وانقسامات وحروب داخلية وتطاحن عائلي طويل على الملك مما جرها إلى الكثير من المحن والبلايا هذا فضلا عن تلك الحروب التي عصفت بها.

فتارة يقود الحفصيون[2] حملات على فاس، وتارة أخرى المرينيون على تونس ودولة بني زيان، فمرة تنتهي لهؤلاء ومرة لأولئك، ووجوب التخلص منهما معا، وفي ظل هذا المد والجزر. استقلت جهات عديدة بنفسها في بلاد المغرب الغربي مؤلفة من إمارات وطوائف، ولم يقضوا على النزاع العائلي والإقليمي بل تعداه إلى طابع خارجي أكثر اتساعا، فهذا التمزق السياسي والتأزم الداخلي جلب إلى بلاد المغرب الأطماع الأجنبية فوقعت ثغوره تحت الاحتلال البرتغالي[3] والإسباني فيما بعد وهددت مدن أخرى كذلك.

2- الحالة الاجتماعية والاقتصادية :

إن ما تقدم ذكره عن الحالة السياسية لا يستقيم الا بافتراض قاعدة اقتصادية ولو ضعيفة ومهلهلة اقتصاديا واجتماعيا. فقد شكل منتصف القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر ميلادي نقطة تحول في تاريخ المغرب الإسلامي لا بمعنى تغير مفاجئ بل بمعنى استقرار نسبى كرس تلك العناصر الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وحتى الإدارية التي تحكمت في سير البلاد أثناء الظروف اللاحقة فحافظت المنطقة على نفس النظام إلى مطلع العهد الحديث نجد نفس المؤثرات وأحيانا نفس الوقائع والأدوار، فلا شك أن أمراء تلك الحقبة كانوا يتطلعون إلى إحياء عصر الموحدين وما امتاز به من قوة ومجد،

1- عبد الحميد حاجيات، أبو موسى حمو الزياني، حياته. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 20.
2 - المطوي، المرجع السابق، ص 232
3 - المرجع نفسه، ص 324.

غير أن هذا الانجذاب يرتكز إلى أسباب مادية اقتصادية وأوضاع بلاد المغرب أصبحت فيما بينها متجاذبة، وهذا ما جعل الأوضاع الاقتصادية تشابه الأوضاع السياسية إلى حد التساوي حفصيا وزيانيا ومرينيا فكانت كل سلطة من سلطات بلاد المغرب تتجه تلقائيا نحو الانقسام، فالحفصية مثلا إلى إمارتي قسنطينة و بجاية.[1]

وفي كل إمارة كانت السلطة تعتمد على المكوس المفروضة على التجارة الداخلية و الخارجية وعلى المخزن أي الولاة وأتباعهم وحتى على الجند المرتزق المكون في غالبه من بدو بني هلال المنتشر في كل بقاع المغرب،[2] وكانت المسؤولية هنا مزدوجة جبائية وعسكرية فالخدمة العسكرية كانت تعني في المقام الأول اقتضاء الجبائية والمغارم وغالبا ما كانت توجد العشور عبثا وتعود للمخزن ومن هنا استعملت كلمة (المخزن) لتموين الجيش وتسيير شؤون البلاد والأزمات.[3]

ولم يلبث أن انفصل المخزن عن المجتمع واحتكر لمجموعات معينة، فكانت الخزينة تعتمد نظريا على المداخيل التالية: العشور وهي الرسوم المفروضة على المزارع والأعراش والمواشي وأما المكوس فهي الرسوم على المعاملات أما المداخيل الشرعية فتتمثل في الفيء والزكوات وقد قلت فائدتها بالنسبة للخزينة.

كما أن دور انتشار الأغراب في المزارع والبسائط وتحويلهم لها إلى تدهور الإنتاج الزراعي بسبب قلة المزارعين، وبالمقابل تحسنت أموال التجارة وكثرت أرباحها وساعد في ذلك إحياء الطريق التجاري الصحراوي خاصة عندما انتعشت وتجددت العلاقات فيما بين ممالك السودان والمغرب أيام المستنصر الحفصي، كما أن تجارة الصحراء كانت رائجة خاصة بسواحل المتوسط التي نمت اطرادا، ونظمت أكثر في هذا الميدان نظرا لموقع إفريقيا وانتفاضتها الاستراتيجية في المشرق والمغرب، كما أن المعاهدات والمواثيق المبرمجة كانت تتجدد بانتظام وفي سنة(753هـ ، 1352م)، انتهز بعض التجار ضعف السلطنة الحفصية، إذ يقول عنها اغلب الزراعيين: "إن أعظم تجارة كانت من سفن البحر" ونما عدد التجار في كل من قسنطينة وصفاقص وكانت

1- الناصرى الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف، جعفر ومحمد الناصري، ج. 3، مطبعة دار الكتاب المغربين 1954، الدار البيضاء ص 114.

2 - عبد الله العروى، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربى، ط.2 ، 2000، ص.205.

3 - إبراهيم عبد القادر بوتشيش، إسهامات في التاريخ الإقتصادي والاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، تحقيق:المنوني، منشورات عمادة جامعة مولاي اسماعيل، 1997، ص ص. 125- 126.

إفريقيا تستورد الزيوت والنسيج والمصنوعات المعدنية وكانت تعتمد على التبادل مع المغرب الأقصى في الجلود والزرابي وبعض الحبوب.[1]

ومما لا شك فيه، أن الحالة الاجتماعية والاقتصادية لأي مدينة أو دويلة خلال الحقبة الوسطية هو أمر يعزى دون شك إلى شح المادة التاريخية وندرتها، الأمر الذي يجعل الباحثين في عزوف عن اقتحام موضوعه و سبر غوره، رغم هذا تبقى المصادر أهم مورد لهذه الجوانب خاصة الاجتماعية منها حيث تفيد كتب النوازل وبعض النتف الموجودة بها.

وتبقى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية بالمغرب الإسلامي بأقطاره الثلاثة وأطياف مجتمعاته بحكم العادات والتقاليد التي تختلف من بيئته لأخرى، وتشابه في كثير من الأحيان وأما اقتصاديا فكان يعتمد على عناصر التشابه فيما بينها كتنوع الزراعة والفلاحة والصناعة والتجارة وهي عناصر تكاد تشترك فيها هذه الدول بين التفاوت في قلة أو كثرة الإنتاج وكمية المحلي بينها والمصدر على الخارج.

أولا: اجتماعيا

يتضح لنا من خلال النوازل وبعض ما ورد في المصادر المغربية أن معالجة الحياة الاجتماعية ولو أنها لم ترد بالتفصيل إلا أنه يمكن أن يستخلص منها بعض المقومات وتستخرج منها أهم الركائز والمقومات التي كان يسير وقفها المجتمع المغربي عامة كنوازل الونشريسي والمازوني والبرزلي وغيرها.

ويتضح لنا العديد من الحقائق والإرشادات المتعلقة بفئات المجتمع والحياة الأسرية في تلك الفترة ما يلي:

فئة الفقهاء: كانوا يشكلون طبقة متميزة في المجتمع المغربي ويحظون بمركز اجتماعي مرموق ينعم بفضله بالثراء واحترام الناس، فيذكر الونشريسي أن القضاة كانوا قلة ولذا كان يقوم مقامهم الفقهاء وأهل العلم العدول في تطبيق الأحكام وإقامة المحدود، وهذا ما جرت به العادة عند بعض القبائل المغربية.[2]

فئة الأشراف: الذين ينتمون إلى البيت النبوي الشريف وهي طبقة كانت تحظى بقدر وافر من التبجيل والاحترام في المجتمع المغربي[3] لدرجة أنه أصدرت فتوى بوجوب احترام الأشراف، والقيام بحق ذرية النبي صلى الله

1 - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص. 207.

2- كمال السيد مصطفى، جوانب من حضارة المغرب من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1997، ص ص. 24-25.

3 - الونشريسي، المعيار ج.5 ص ص. 154-155.

عليه وسلم، ومن جهة أخرى على الشريف احترام غيره من المسلمين بلا احتقار أو ازدراء.[1]

وهناك فئات أخرى كان نشاطها يتركز غالبا في الأسواق والشوارع والرحبات والميادين.

وأما فئة الرقيق فكانت تمتهن بالأسواق منها ما يروج لتجارة الرقيق لدرجة أنه كانت توضع علامة عليهم ليعرفوا بها.[2]

الذميون:

أما أهل الذمة فيتضح من خلال بعض النوازل والفتاوى غالبية الذميين من اليهود وكانوا ينعمون بالتسامح والمودة مع جيرانهم المسلمين فتعيد إحدى النوازل أن أحد المسلمين كان له جار يهودي تربى معهم وعلاقته بهذه العائلة تتسم بالصداقة والود.[3]

وعليه فقد أشار الونشريسي إلى وجود بيع يهودية ببلاد المغرب ومنها بيعه في توات[4] وكان لهم نفوذ تجاري إلا أنه لوحظ عليهم بعض الاستعلاء بالمنطقة ولم يلتزم بعضهم بأحكام أهل الذمة[5] وكان اليهود يؤدون شعائرهم الدينية فيها بحرية تامة دون مضايقة من المسلمين خاصة وأن هذه البيع وجدت في عهود قديمة. فالفقهاء المغاربة أفتوا بوجوب الوفاء الذمة وأباحوا لكل طائفة حق بناء بيعة واحدة لإقامة شرائهم ومنعوهم من دق النواقيس[6] غير أن اليهود كانوا غالبا ما يستغلون هذا التسامح في السلطة الحاكمة فيذكر الفقية العقباني في إحدى فتاواه أن تفعله اليوم في الأسفار من ركوب الخيل والسروج الثمينة ولبس فاخر الثياب والتحلي بحلية المسلمين والتعمم بعمائهم محظور وشنيع منكر وفظيع يجب إزالته بما أمكن[7].

ومن خلال بعض ما ذكره الونشريسي أن اليهود في عهد المرينيين بدؤوا بنشر الفساد والفتن، فأفتى الفقهاء آنذاك بذمية اليهود،[8] وأمر الفقهاء في

1- كمال أبو مصطفي، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، 1997، ص. 48.
2- المرجع نفسه، ج.5، ص. 146-147.
3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، المرجع السابق، ص. 53.
4- توات ناحية على ضفاف وادي الساورة في وسط الصحراء الجزائرية تضم عدة واجبات أهمها قديما تمنطيط، وتدعى اليوم أدوار وقد أدت دورا هاما في العلاقات الاقتصالدية والدينية والثقافية بين المغرب وبلاد السودان. ينظر: الوزان، وصف إفريقيا
5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، المرجع السابق، ص. 447.
6- الونشريسي، المعيار، ج.2، ص ص. 214-215.
7- كمال مصطفى السيد، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ص37.
8- أبو القاسم سعد الله، ترايخ الجزائر الثقافي، ج.1، ص ص. 53-56.

في المغرب الأقصى بترحيلهم ، غير أن هذا الموقف يقابله بعض التسامح من طرف الحفصيين فقد نعموا بالاستقرار والأمان.[1]

ومن جهة أخرى فإن الونشريسي يذكر أن أهل الذمة بالمغرب الإسلامي كانوا يحلفون اليمين في دور عبادتهم فاليهود وحسب علمهم اليمين يوم السبت والنصارى يحلفون يوم الأحد.[2] أما النصارى فالملاحظ أن عددهم بالغر ب الإسلامي تزايد كثيرا خاصة الذين وفدوا من الأندلس.

العادات والتقاليد والأعراف:

كما يظهر من خلال عادات أهل المغرب الإسلامي وتقاليدهم المتعارفة والمتوارثة وأعرافهم التي سايروها وتوارثوها عن أسلافهم بعض التمازج بين سكان هذه الدويلات.

الحياة الأسرية: تظهر الإشارات والحقائق المتعلقة بالحياة داخل الأسرة الواحدة أن الأمور كانت تسير وفق التشريع الإسلامي ويظهر ذلك من خلال الزواج[3] وتوابعه.

* **الزواج**: ساد بالمغرب الإسلامي وكغيره من البلدان الإسلامية حيث يتولى أهل العروسين أمور الزواج بالاتفاق فيما بينهم والتحادث في أموره فيما يتعلق بالصداق والهدايا.[4]

وكان صداق الزوجة في المغرب الإسلامي يعتمد كما هو الحال اليوم على معجل رسمي النقل ومؤجل أي المؤخر.

كما ساد زواج الأقارب لميل أهل المغرب لهذا الزواج لتوثيق صلة الرحم رغم ما كان يحدث بينهم من اختلافات حول قيمة المهر أو الصداق وقد أثار ذلك العديد من النوازل.[5]

وبعد انتهاء فترة الخطوبة يتم عقد القران في أحد الجوامع أو المساجد على يد القاضي أو صاحب الأنكحة.

كما شاع بين أهل المغرب ظاهرة الزواج المختلط بين العرب والبربريات وخاصة بربر الأندلس، كما كان حرص أهل المغرب على تزويج اليتيمة إلا بعد بلوغها وموافقتها واستشارة ثقات النساء لذلك.

1- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ص. 25-33.
2- الونشريسي، المعيار، ج.10، المصدر السابق، ص. 309.
3- الوزان، المصدر السابق، ص. 254.
4- من خلال نازلة أشار إليها الونشريسي تبين صداق إحدى الزوجات في المغرب، فيذكر أن الصداق النقد عبارة عن خلاخل فضية ثمنها عشرة دنانير من الذهب وأقراط ذهب من دينارين وعقد جوهر قيمته ستة دنانير من الذهب أثواب من الكتان والحرير وفراس من القطيفة وبعض الصحان والأقداح ينظر: الونشريسي، المعيار، ج.3، ص. 100-112.
5- المصدر نفسه ج.3، ص. 161.

ويلاحظ أنه إذا فقد الزوج في أرض العدو، أو أثناء رحلته للتجارة أو غيره، فإن العم هو الذي يقوم بتزويج الإبنة بعد أن يستأذِن الأم لاحتمال وفاة الأب، أو أخ بالغ يتولى أمر نكاحها بعد ذلك.[1]

- الرعاية و التكافل الاجتماعي:

اهتم أهل المغرب بتوفير الرعاية الاجتماعية للفقراء والمعدمين كما خصوا بذلك اليتامى ووفروا لهم بعض الحياة الكريمة كإحدى الذوازل الواردة أن رجلا أوصى بالتصدق بمبلغ مئة وخمسين دينارا من الذهب على الفقراء والمساكين في بلدته.وآخر بمليانة،[2] أوصى سنة(838هـ، 1434م) بأن تصرف أملاكه على المساكين.[3]

- الأوقاف والأحباس ودورها في المجتمع المغربي:

لقد أولاها أهل المغرب اهتماما كبيرا لمساهمتها في توفير بعض من الرعاية للفقراء واليتامى والمرضى، وهذا دليل على التكافل السائد في المجتمع المغربي ككل فكانوا يعتبرون الأوقاف والأحباس صدقة جارية وقد تنوعت من أنواعها ما كان على المساجد والمدارس والأربطة والزوايا. كما كانت تعود مداخليها لدفع رواتب الإمام والمؤذن.

ومن خلال ذوازل الونشريسي يظهر بأن من أهم الأراضي والاقطاعات الزراعية في المغرب ما يلي:

- **أرض الموات**: وهي الأراضي البور التي يقطعها السلطان أو ولي الأمر لمن يحرثها ويزرعها.[4]
- **أراضي الإقطاع:** وهي التي يقطعها سلاطين الدولة المهينة لمن يؤدي لها الخدمات، فاقتطعت شخص فإذ توفي اقتطعت لغيره ولا تورث عنه، فهي منفعة لصاحب الإقطاع دون ورثته.[5]
- **الأراضي الموظفة**: وهي الأراضي التي فرض عليها وظيف للدولة ويلاحظ أنه في حالة شراء تلك الأراضي يلزم الدفع للوظيف أو القائم عليها بعد الشراء أو الكراء.

1- الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص ص. 124-124.

2- مليانة إحدى مدن المغرب الأوسط وهي مدينة كبيرة جدا وقديمة بناها الرومان وأطلقوا عليها إسم ماكنانة، لكن العرب حرفوا هذا الإسم، ويقال أسسها بلقين بن مناد. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ص. 34.

3- كمال السيد مصطفى، المرجع السابق، ص. 103.

4- الونشريسي، المصدر السابق، ج. 7، ص. 34. والمازوني، الدّرر المكنونة في نوازل مازونة، ج. 3، ص ص. 203- 204.

5- المازوني، المصدر نفسه، ج. 3، ص 99.

- **الأراضي القانونية**: وهي الأراضي التي يقطعها ولاة الأمر لأفراد نظير خدمات قدموها للدولة ولكنها تتميز بأنها ملكية خاصة لهؤلاء الأفراد ويجوز بيعها وتوارثها.[1]

ويظهر أن الإقطاع في المغرب كان إما إقطاع تمليك أو إقطاع منفعة.

- **الصناعات**:

المعادن: اشتهر المغرب الإسلامي بكثرة معادنه ومواردها التابعة للنظم الصناعية كالملح الذي يستخرج من صحراء المغرب كجنوب المغرب الأقصى، وكانت تجارته رائجة خاصة القوافل الصحراوية ولا غنى ببلاد المغرب عنها، ومن خلال بعض الذوازل تسير على استغلال بعض مناجم الملح للسلطات وتستأجر وتنتقل وفق الاتفاق أو العقد، إضافة إلى معادن أخرى ولو أنها قليلة.[2]

ثانيا: الحياة الاقتصادية

ورث الحفصيون والمرينيون والزيانيون بنية اقتصادية ضعيفة تعود أساسا للاضطراب السياسي الذي ورثته هذه الدول و الفراغ الذي تركه الموحدون وكثرة الصراعات التي نشبت بين هذه الدول الثلاث و التي تكالبت على اعتلاء سلطة المغرب الإسلامي.

ومقارنة بالجانب السياسي لم تول المصادر الجانب الاقتصادي حقه ذكرا ودراسة، وخاصة الجانب الاجتماعي إلا بعض النوادر التي تراوحت بين كتب النوازل[3] و الجانب الأكبر منها جاء على لسان ابن خلدون من خلال تاريخه، وما جاءت به مؤلفات أخرى، خاصة منها كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ، ونظم الدّر والعقيان للتنسي وتاريخ الدولتين للزركشي. وغيرها من المصادر التي حوت بعضا من تاريخ الدول، مع التعريج على بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي يستقى منها قسط من الدراسة للجانبين الاقتصادي والاجتماعي.

فلقد اتسمت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط بعدة مظاهر من التدهور والانهيار ومقارنة بالفروق السابقة وذلك لعدة عوامل من أبرزها تأثير العامل السياسي الذي اتسم بعدم الاستقرار وأدت هذه الحالة إلى

1- بوعياد، الحياة الإجتماعية بالمغرب الأوسط، ص 62.

2- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 181.

3 - مثل كتابي نوازل البرزلي والمازوني والمعيار للونشريسي، والتي حوت مسائل في المجالين الإقتصادي والاجتماعي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

تعطيل شبه كامل على مظاهر الإنتاج سواء في المجال الزراعي أم الصناعي وهذا ما ذكره ابن خلدون في قوله: "وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب وتبدلت بالجملة عن أجيال البربر أهله من التقدم بما طرأ فيه على أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان بملكهم".[1]

وسبب الحروب والفتن والصراعات بين دول المغرب وانتشار الفتن الداخلية وسطو القبائل وقطاع الطرف تراجعت التجارة بين دول المغرب،[2] بسبب فقدان الأمن عبر المعابر التجارية وتضررت مصالح السكان كما انتشرت في هذه الفترة الحبوس وعمليات التحبس، وهذا ما أشارت إليه بعض كتب النوازل وثقل أعباء الضرائب المفروضة أدى ببعض الأسر إلى تحسين ممتلكاتها على المساجد والمدارس والزوايا بدل الاستيلاء عليها من قبل الدولة وهذا ما أثار جدلا واسعا بين الفقهاء حول مدى مشروعية التحسين .

كما أن إرهاق صغار الفلاحين بالضرائب الثقيلة والصعوبات الطبيعية جعلت مؤشر بلاد المغرب بزراعة الحبوب على حساب المزروعات الأخرى من الخضر والفواكه.

والظاهر أن المعاملات الاقتصادية والتجارية كانت بعيدة عن أي ضابط شرعي أو قانوني يدل ذلك على تراجع نفوذ الدولة.ولعل أبرز المؤثرات في الحياة الاقتصادية تأثيرا سلبيا إضافة إلى الضرائب المفروضة على اغتصاب الأراضي والضغط على ملاكها مما دفع بهم لتحبيسها أو الهجرة أو الالتجاء إلى أطراف قوية للحماية مقابل تقاسم الإنتاج وهذا أدى إلى تقلص النشاط الزراعي والتجاري وأثر مباشرة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لغالبية المجتمع المغربي[3] إضافة إلى السياسة المغربية المفروضة وذلك لحاجتها للأموال المخصصة لتهيئة الجيوش ومن هنا يظهر عدم التوازن الملحوظ الذي لم يكن يراعي أدنى متطلبات الجانب الاقتصادي ومستوى الحياة الاجتماعية هذا ما سهل بوادر ظهور الأزمات الظرفية إضافة إلى الظروف الطبيعية كالجفاف والمجاعات وهذا ما ذكره ابن خلدون في قوله: "وفي هذه السنة(776هـ ، 1374م)،كانت المجاعة العظيمة بالمغرب وعم الخراب".[4]

كما أن المغرب الإسلامي عرف عدة مجاعات كلما كان الموسم الزراعي سيئا وكذا تعرضها للأوبئة والأمراض مثل الطاعون الذي عرفه

1 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج.7، ص. 78.
2 - بوعياد، المرجع السابق، ص. 42.
3 - كمال مصطفى السيد، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب القاهرة، 1997، ص. 110.
4 - الونشريسي، المصدر السابق، ج. 5، ص ص. 12- 13.

منتصف القرن الثامن والذي ذكره ابن خلدون واصفا إياه بقوله: هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف القرن الثامن الطاعون الجارف الذي يخيف الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من العمران ومحاها وجاء للدول على ضعف هرمها وبلوغ الغاية من مداها.

أولا: الزراعة والري

لقد أولى أهل المغرب الإسلامي من خلال القرنين الثامن والتاسع للزراعة والري أولى اهتماماتهم وذلك لأن الفئة الغالبة تمتهن الفلاحة وتتقوت منها.

وكانت مصادر السقي والري من الأمطار والعيون والآبار والأودية والصهاريج فقد كان نظام الري في تلمسان مثلا منظما وسليما ودقيقا للغاية بحيث كان المزارعون يتعاونون فيما بينهم على سقاية الأرض على الترتيب فئة تسقي بالنهار وأخرى بالليل وفئة من الغداة إلى الزوال، واستمر الحال لسنوات عدة بالإضافة إلى تلمسان اشتهرت بعض المدن المغربية هي الأخرى بكثرة الأنهار والسواقي كما اهتم أهل فاس ونواحيها بتعميم عملية السقي والري في وادي فاس وأقيمت لذلك بعض السدود في القرن الثامن الهجري لينظم مياه السقي والتحكم فيها بنظام ويطهر من الرواسب وما حمل على أهل المغرب عامة تعاونهم في كل ما يتعلق بخدمة الأرض وتحمل نفقات خدمة الساقية وعرفوا بنظام المناوبة في ري الأرض مما قلل المنازعات التي تثار بينهم.

أنواع الأراضي:

من الملاحظ أن الأراضي الزراعية بالمغرب كانت تنقسم إلى قسمين:

أرض سقوية[1] يجلب إليها المياه للري سواء مياه الأنهار أو العيون أو غيرها باستخدام آلات رفع المياه كالنواعير والدواليب والآخر أرض تسقى بماء المطر.[2]

كما أنه اشتهرت صناعات النسيج والتي عرفت بها مدينة سوسة بإفريقية وبها سوق للغزل وأسواق عبر المغرب رائجة وبسيطة كما اشتهرت صناعة الحياكة وصنوف من الملبوسات،[3] وكذا صناعة الزيوت في بلاد المغرب لوفرة مزارع الزيتون بها واستشار معاصرة في معظم بلدان المغرب.

1- إبراهيم القادري بوتشيش. المرجع السابق، ص. 38. وينظر: البرزلي، جامع مسائل الأحكام من القضايا بالمستفتين والحكام، تحقيق وتقديم محمد المعيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002، ج.3، ص ص. 37- 39.

2- المرجع نفسه، ص. 49.

3- الونشريسي، المعيار، ج.5، ص. 223.

كما اشتهرت صناعة الكاغد (الورق) وذلك بفاس التي كان يصنع بها الورق المغربي ويمتاز بالجودة والبياض الناصع على جانب الكاغد الرومي الذي كان يباع بالمغرب كذلك.[1]

ثانيا: التجارة

عرفت تجارة المغرب الإسلامي رواجا كبيرا وذلك من خلال أسواقه المتميزة والمنتشرة في كل أرجاء المغرب من سوق المهدية وسوق الغزل بوسة، وكان كل سوق يشتهر بنوع معين من السلع، كما كان المغاربة يحثون ولاة أمورهم على منع أهل الذمة خاصة اليهود بأن لا يسعوا في أسواقهم بعض المواد: "كالخبر أو الزيت أول الخل وغيره لعدم تحفظها فيها".[2]

كما كان البدو يسوقون سلعهم في المدن والحواضر، وينزلون بفنادقها. وكان لكل من يلجأ للتدليس، أو الغش في السلع وبيعها، يتعرض للعقوبة من جانب المحتسب أو صاحب السوق.

كما يمنع الاحتكار بالأسواق،[3] وهذا ما عرف على أهل المغرب من صفاء تجارتهم. ولذا يلجأ الفقهاء إلى التسعير ويتولاه المحتسب. وكان تعامل التجار بيعا وشراء كل حسب بلده، كالدرهم التونسي، الذي كان يضرب في دار السكة التونسية في العصر.[4]

كان من الأوزان السائدة في معظم بلدان المغرب الإسلامي المدّ القروي والمغربي. ويذكر الونشريسي أن أهل المغرب كانوا يخرجون زكاة الفطر بهذا المدّ القروي، في حين كان المد النبوي يساوي مدا وثمن مد قروي.

المكوس:

كانت تعرض على أهل المغرب ضريبة شمس مغرم السوق من تجار وباعة وصناع بالأسواق ويمتهنها ثقات أمناء، وهناك ضريبة مغرم الدور يتولى جبايتها عمال يترددون على الدور ويحصلونها من أصحاب العقارات السكنية.[5]

1- الونشريسي، المصدر نفسه، ج.1، ص. 75.

2- الونشريسي، المعيار، ج.6، المصدر ىالسابق، ص. 68.

- وينظر: أبو القاسم سعد الله، ج.1، ص. 53.

3- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص. 71.

4- تجدر الإشارة على أن الدينار الذهبي كان العملة الحفصية بتونس وزنه يصل إلى 4.72غ أما الفضي 1.5غ، وقام الحفصيون بصك أجزاء في الدينار والدرهم في عهد المستنصر الحفصي.

- ينظر: الزركشي، المصدر السابق، ص. 38.

5- الونشريسي، المعيار، ج.4، المصدر السابق، ص. 36. والبرزلي، الفتاوى، ج.3، المصدر السابق، ص. 346.

ضريبة العشر يتولى جبايتها عامل يشرف على المحاصيل والأراضي الزراعية وتشير إحدى الذوازل على فئة كانت تجلس عند أبواب المدن لتحصيل مكس الباب، وكان بعض بعض قضاة تونس يحصلون على رواتبهم من هذا المكس.[1] كما أنها كانت تفرض على السلع والبضائع التي تدخل المدينة. أما اليهود فكانوا يستقلون بخطة صرف بيت المال لخبرتهم في أعمال الصرفة والحسابات المالية.

وبعد الوقوف على هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدويلات المغرب الإسلامي في الزراعة والصناعة والتجارة وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ويظهر أن اقتصاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة ظل يرتكز على الزراعة كقوة إنتاج رئيسية ويشغل قطاعا عريضا من العاملين في الأراضي ومع بعض التحصر الذي لحق بأهل المغرب عامة أخذت الصناعة تحمل مكانتها في خارطة الاقتصاد.

إلا أن الإنتاجية ظلت محلية تقليدية تقتصر على سد حاجيات السوق المحلي. أما القطاع التجاري فرغم ازدهاره نوعا ما داخليا، ظل ضعيف الصلة بتجارة الخارج، مما أضفى عليه طابع التقوقع والمحلية، من خلال الخطوط العريضة لاقتصاديات المغرب عامة.

زراعيا: ظلت الزراعة حجز الزاوية في اقتصاد المغرب الإسلامي،[2] وهو ما تؤكده جميع الدراسات، وما وجد في المصادر وكتب الرحالة والجغرافيين، إضافة إلى تضرر الزراعة لأسباب عدة منها التخريب والحصار وبعض غارات القبائل. كما كانت السياسة الزراعية التي انتهجتها دول المغرب مستندة على الفلاحين بإثقال كواهلهم بالنفقات والضرائب والمكوس، مما أدّى إلى انقباضهم وفرارهم وبوار الأراضي.

- بدائية السقي والري وبالتالي تأخر الإنتاج.
- مساهمة بعض الظروف القاسية، كالقحط والجراد. ومع ذلك كلّه ظلت الزراعة المورد الأساسي لأهل المغرب رغم كل التقلبات.

صناعيا: ظهر نوع من التطور في الصناعة عند دول المغرب للظروف التي سيارتها هذه الدول خلال هذه الفترة وهي غلبة الطابع العسكري[3] الذي وجه الصناعات الحرفية والتقليدية وإنشاء مصانع لذلك وبناء القلاع

1- الونشريسي، المعيار، ج.6، المصدر السابق، ص. 137.

2 - أبو زكرياء يحيا المازوني، الدّرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: حساني مختار، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة بوزريعة، مخبر المخطوطات، الجزائر، 2004، ج.3، ص. 99.

3 - بو عياد، المرجع السابق، ص ص. 25-30.

والحصون وبقيت الصناعة مرتبطة على الزراعة رغم احتقارها إلى بعض التقنيات نحو تطورها.

تجاريا: لقد تحكمت في التجارة عدة عوامل فيها ظروف اللاأمن فضلا عن المناقسة الأجنبية إلا أنها نشطت بظهور وإنشاء أسواق جديدة ووجود المحتسبين إلى أن بعض المقتبسات التي أكد عليها في الدول حال دون تطوير المجال التجاري مع حرض الضرائب على التجار وتأثرهم مماثل حركة بعضهم أعاق تطورها.[1]

فئات المجتمع:

بقي الاقتصاد رهين القاعدة المنتجة، ولذلك بقيت ظروف هؤلاء تحكم في التطور الصناعي والتجاري والزراعي، فبعض الفئات الاجتماعية المهمشة كالفلاحين والحرفيين، وحتى المرأة المغربية كانت مساهمة في بناء المجتمع المغرب الإسلامي رغم ما عرفوه من محن، وحصارات ومجاعات وأوبئة، فضلا عن الضرائب والفارات، والسلب الذي كانوا يتعرضون له، إلا أن المجتمع المغربي يبقى مجتمعا متماسكا ملتحما.

وبعد نهاية الموحدين، وظهور الدول الثلاثة، استلزم الأمر حصرا جديدا للسكان، وتباين عناصرهم وفئاتهم، وتعدد أعرافهم وكغيره انقسم مجتمع المغرب الأوسط وقسنطينة خاصة إلى فئات، وكان للبعد السياسي والاقتصادي أثر على ذلك.

يمكن تقسيم مجمل السكان إلى بدو وحضر،[2] ويرجع هذا التقسيم إلى أساليب حياتهم وتوزيعهم الجغرافي.

الحضر:

نجدهم ينتشرون في القرى والمدن الساحلية، وفي السهول، يمارسون الحرف والتجارة، وغالبيتهم يمتهن بعض الصناعات والأقلية تمارس التجارة والتبادل داخل وخارج المدن.[3]

البدو:

وأما البدو يعيشون على خدمة الأرض والسكن بالخيام وامتلاك الأنعام وتربيتها وتواجدهم غالبا بالهضاب والتلال ويمارسون الفلاحة والغراسة وسائر الحرف التقليدية.

---

1 - المرجع نفسه، ص. 32. وينظر: الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب.ت.ط.، ص. 213.

2 - المازوني، المصدرالسابق، ج. 2، ص 451.

3 - بوعياد، المرجع السابق، ص. 68.

والملاحظ بعد الهجرات التي توالت على بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي لم يعد التركيب السكاني للشمال الإفريقي كما كان عليه في السابق بعد الغزو الهلالي.

فئة الصناع والحرفيين:

وقد برعت هذه الفئة بصناعتها في أرجاء البلاد وكانت الفئات الشغالة التي تعتمد عليها من غالبية السكان، وقد عرفت مهنا حرة عديدة منها صانعوا الثياب والجلود والبناء و السلاح والصيادون وغيرهم.

وهناك فئة مهمة وهم التجار هذه الفئة لا تقل أهمية عن الفئات السابقة فقد ازداد نشاطها وأسهمت في دفع الحركة التجارية والاقتصادية في البلاد واستقطبت فئات كثيرة في المجتمع كما أنها شكلت همزة وصل بين الإنتاج والاستهلاك. وتوسعت بذلك التجارة داخليا وخارجيا وهناك فئة أخرى تمثلت في أصحاب المهن المتنوعة.

فئة المثقفين والمتعليمن:

نتيجة التحول السياسي والمذهبي والاجتماعي الذي شهده المغرب الإسلامي وعجز القوة الصاعدة والمتمثلة في الحفصيين والزيانيين والمرينيين من إقرار الأمن أمام نشاط الأعراب واللصوص والقراصنة إضافة إلى الكوارث الطبيعية فسادت الفوضى والخوف داخل المجتمع المغربي، وانحدار الذهنية المغربية نحو الخرافة وانحطاط الفكر وتردى الثقافة.

وقد ظهرت حركة مقاومة وتصدي لهذا النوع الأدنى من البدع من خلال بعض المؤلفات والكتابات الإصلاحية ككتاب المدخل في تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، وشفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون(808هـ،1405هـ). ووصايا ابن قنفذ الإصلاحية التي ختم بها كتاب أنس الفقير وعز الحقير.[1]

و للنهوض بالجانب الاجتماعي يقتضي منا معرفة فئات المجتمع فهناك فئات دنيا كانت تمارس حرفا بسيطة محدودة الدخل وفئات مارست وظائف سلطانية مثل القضاء والتعليم والإمامة والخطابة في المساجد وغيرها.

وفئات ملاك الأراضي التي تفترض أن تكون أراض خاصة بأصحاب الإقطاعات الواسعة،وهذا التقسيم يمثل سكان المدن والأرياف وهذا من خلال الاعتماد على كتب الذوازل التي سهلت هذا التقسيم واختلاف الأوساط

1- بوناي الطاهر، أهمية المخطوطات في المنافسة في كتابة التاريخ الأجتماعي والثقافي والفكري للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، المجلة الجزائرية للمخطوطات، يصدرها مخبر شمال إفريقيا جامعة وهران، الجزائر، العدد: 2 و 3، 2005/2004، ص.128.

الاجتماعية بالاعتماد على كتب التراجم والمناقب في غياب مصادر متخصصة يمكن تمييز بعض المستويات الاجتماعية وتحديد الفروقات بين هذه الفئات .

الشرائح الاجتماعية الدنيا:

ويظهر ذاك من خلال الحرف المستعملة في بداية حياتهم والتي استمرت لدى البعض طوال حياتهم كالخياطة وممارسة البيع والشراء ومنهم من امتهن الحباكة. والبعض الآخر كان يمارس رعي الأغنام والأبقار وبيع بعض الأدوات المصنوعة من الدوم كالقفاف والطباق.

وكان بعض العلماء يمتهنون هذه الحرف مثل وأحمد رزوق[1] (846-899 هـ، 1442- 1493م) الذي نشأ يتيما وفقيرا تعلم صناعة الخرز ليساعد عائلته في سن مبكرة، وتعددت هذه الحرف الممتهنة من قبل الفئات المذكورة من خياطة ورعي وصناعة وغيرها من المهن والحرف الحرة شملت قطاعا واسعا في مجتمع المغرب الأوسط خلال هذه الفترة فجاء الفقر والحرمان من بين العوامل التي دفعتهم إلى مواصلة أعمالهم واستمرار حالهم على هذا النحو.

فنجد في المقابل الشرعية الاجتماعية لأول شريحة أخرى مارست بعض الوظائف وغالبا ما كانت تكلفها بها السلطة والتي يفترض أن يكون وضعها الاجتماعي أحسن من الشريحة الأولى فإلى جانب وظيفة القضاء والتعليم التي كانت أكثر ممارسة بالمدارس والزوايا كما أن مهنة خدمة الأرض كانت مصدر الرزق المفضل عند سكان المغرب الأوسط،[2] وكانوا أكثر انتفاعا بها على خلاف الوظائف السلطانية.

بما أن تغيير الحرف لم يقتصر على عامة الناس بل مس حتى طبقات أهل العلم تبعا لقناعتهم بها رغم المكانة الاجتماعية،[3] التي أصبحوا يخطون بها ويبدو أن بعض المهن قد تطورت كممارسة التجارة والتي كانت تستوجب دفع الضريبة عليها أثناء دخول المدن.

ورغم ما حدث من اضطرابات سياسية وتقلبات اجتماعية عمت أقطار المغرب الإسلامي على عهد الدويلات الثلاث الحفصية والزيانية والمرينية فإن ما حدث في اقتصادها من كثير تبديل و تغيير فقد استمر أهلها على نشاطهم طيلة قرون وهو ما نجد ذكره عند غالبية المؤرخين والجغرافيين من القرن

1- هو أبو العباس أحند بن أحمد ابن محمد بن عيسى الفاسي المعروف برزوق 846-899 هـ، 1442-1493م) العالم الفقيه الفاضل النبيه أحد الاعلام والفقهاء المحدثين المتصوفة من آثاره مختصر خليل، والنصيحة الكافية، وشرح رسالة القيرواني، ينظر حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق: طاهر المعمودي، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس، ص ص. 123- 124.

2 - بوعياد، المصدر السابق، ص. 42.

3 - المازوني المصدر السابق، ج. 2، ص. 415.

السادس والسابع والثامن يصفون الوضع الاقتصادي والتقدم الزراعي في المغرب الأوسط.

ويذكر عدة رحالة في رحلاتهم لقسنطينة أن كثيرا من أنواع السلع المتبادلة مثل الزجاج وبعض العتاد وغير ذلك من أدوات الحديد كما كانت صناعة تتبادلها مثل التبر المسبوك والذهب الفضة والعاج والحديد والجلد والسمك المجفف والمرجان،كما كانت تمر بها القوافل التي تردد بين الصحراء والتل مخترقة تخوم إفريقيا وطرابلس ويذكر ابن خلدون[1] بأن الصحراء كانت محط ركاب التجار من المغرب إلى بلاد مالي والسودان وأنه به جنات من نخيل وأعناب ومن كل التمرات، والمراكب الأهلية الأجنبية لا تقف عن التنقل بين سواحل قسنطينة وتلمسان.

كما كانت للمهن والحرف اليدوية حظها وأهميتها كصناعة الدباغة والنعال والأحذية والصياغة والعدانة والخزافة والتجارة والحدادة وفن البناء وكذا النسيج والحياكة.

3- الحياة الفكرية والروابط الثقافية والعلمية بين دويلات المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري:

من أبرز خصائص الفكر الإنساني أنه لا يؤمن بالحواجز السياسية ولا يعرف الحدود الجغرافية التي من شأنها منع الاتصال بين رجاله علماء وفقهاء والمنتمين إلى حقوله المعرفية المختلفة.

فالتلاقح الفكري بين الأمم ظاهرة معروفة خصوصا إذا حلت محل الحواجز السياسية والطبيعية عوامل التقارب العلمي،[2] ووحدة الدين واللغة والجوار، وغيرها كما هو الحال بالمغرب الإسلامي في عصوره الوسطى ذلك ما انطبق على المغرب الأوسط والأدنى والأقصى فيما بينهم والذي ظل يميز تاريخهم الفكري باللاحدود واللاقيود وربطهم بروابط مختلفة تجلت بوضوح في الصلات الثقافية المثبتة بينهم.

والذي ميز هذه الروابط الثقافية والفكرية مدارسهم ومراكزهم المختلفة فكانت محكمة الاتصال كمدارس تلمسان وبجاية وفاس وقسنطينة وتونس ومراكش، وتعود جذورها منذ القرن الرابع وحتى الثاني الهجريين وظلت متعاقبة عن طريق الاتصال وانتقال أعلام الفكر بهذه الأقطار ورحلاتهم بين حواضر العلم حتى القرن الثامن الهجري.

---

1 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج. 6، ص. 372.

2 - محمد بن معمر، ماهية ابن خلدون في تثمين الصلات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، مجلة ابن خلدون بين الجزائر والأندلس، قصر الثقافة، الجزائر، ماي 2007، ص. 83.

ورغم بعض ما ساد خلال هذا القرن من أحداث مختلفة من تقهقر بالعالم الإسلامي مشرقا ومغربا والكوارث التي حلت به كهجمات التتار شرقا وتقلص حكم المسلمين بالأندلس غربا وضعف الأسر الحاكمة وتنافسها فيه وكذا الطاعون الجارف الذي خلف دمارا وخرابا كبيرين وسهولة انتشار الفكر الخرافي الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأوضاع عامة ونشر الفوضى وهو ما عبر عنه ابن خلدون في المقدمة،[1] و عايشه ولم يجد له مستقرا بعدما ضاق به المغربان حيث المؤامرات التي لم تهدأ، ما اضطره للرحلة إلى المشرق، ورغم هذه التقلبات والمفارقات في هذا العصر إلا أن ملوك هذه الدول استطاعوا توطيد ملكهم رغم المحن ومنحوا دولهم قواعد إدارية متينة مما يفسر ديمومتها وبعثوا للحياة الفكرية والعلمية نفسا جديدا

وقد حظي الجانب العلمي والثقافي في عصر المرنيين والحفصيين باهتمام بالغ ونشاط مستمر بل ونجد عصرا ذهبيا لغالبية العلوم ويعود السبب الرئيس في ذلك لاهتمام سلاطين هذه الدويلات من خلال مجالستهم للعلماء وعقد الندوات والمناظرات العلمية.[2] ونتيجة لهذا أقبل الناس على العلم إقبالا شديدا،[3] فقد روى أن أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي (ت741هـ، 1340م) كان يحضر درسه أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة.[4]
وتتجلى ملامح الحالة الثقافية في هذا القرن في الأمور الآتية:

1-اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء:

لا أحد ينكر ما للأمراء من دور كبير في تشجيع العلوم والنهوض بها ووفرة الإنتاج دليل ذلك فكما قيل قديما: " الناس على دين ملوكهم".

والملاحظ على العصر المريني شيوع ظاهرة تشجيع السلاطين والحكام للعلم والعلماء والمجالس العلمية مما اثر في دفع الحركة العلمية داخل مجتمعاتهم.[5]

ويوضح جانبا من هذا الاهتمام موقف أبي عباس المريني في داخل تونس عام(748هـ، 1347م) اصطحب معه أربعة مائة عالم وفقيه أتوا للمعرفة والاطلاع وقد دهش التونسيون حينما رأوا هذا العدد الكبير من العلماء حتى قال شاعرهم.

أجابك شرق إذ دعوت فمكة هشت للقاء ويثرب ومغرب

1 - ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص.33.
2- مخلوف، شجرة النور الزكية،المصدر السابق، ص. 218.
3- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص. 75.
4- ابن القاضي، جذوة الإقتباس، ج. 2، ص. 401.
5 - يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج.1، ص ص. 71 و134.

فيا عسكرا قد ضم أعلام عالم به طاب في الدنيا لنا منقلب

هم الفئة العليا والمعشر الذي إذا حل شدعبا فهو للحق مشعب

وحرص أبو الحسن المريني على عقد الندوات والمناظرات بين علماء تونس على رأسهم عبد السلام الهواري[1](ت750هـ، 1349م) وعلماء فاس يرسلهم أبو عبد الله السيطي (ت750هـ، 1349م).[2]

كما أقام السلطان أبو الحسن مجلسا علميا يتكون من شخصيات فقهية من جهات متعددة وخصص لأعضائه مكافآت سخية ومن أعضائه.محمد بن إبراهيم الآبلي (ت707هـ، 1307م) عالم المعقول والمنقول[3] أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الجزولي (ت758هـ، 1356م) وغيرهم وقد استمر المجلس في عهد أبي عباس بن أبي الحسن المريني ونظرا لوفاة بعض أعضائه السابقين أضاف إليهم.أبا عبد الله بن مرزوق (ت781هـ، 1379م)[4] وأبا عبد الله المقري[5] وفي عهد عبد الواحد المريني[6] اقتصر جماعة من الفقهاء على مجالسته وعقده باستمرار.

كما دأب سلاطين بن مرين على الاستفتاءات الجماعية وذلك لبعث بعض من المسائل والمساءلات إلى علماء المغرب الأوسط بطلب كل مسألة الجواب على حده، ومن ثم مقارنتها ببعضها للوصول إلى الجواب الصحيح، وقد أورد الونشريسي في المعيار أجوبة لسؤال بعثه السلطان أبي الحسن إلى جميع فقهاء المغرب عن حكم اتخاذ ركاب خيل من خالص الذهب والفضة.[7] والفضة.[7]

1- عبد السلام الهواري: هو أحد الفقهاء المغاربة الذين أسهموا في الحياة العلمية. ينظر: الحفناوى، المصدر السابق، ص.67.

2- السطي: هومن علماء المغرب البارزين. ينظر: الحفناوى، المصدر السابق، ص.87.

3- الآبلي: من كبار فقهاء المغرب له عدة مؤلفات، وتتلمذ عليه كثير من العلماء المشهورين. ينظر: مخلوف، المصدر السابق، ص.97.

4- الجزولي: يعد من فقهاء علماء المغرب. ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص.65.

5- صاحب كتاب نفح الطيب. كان من أبرز أعضاء هذا المجلس وأرسخهم علما. ينظر: المقري، نفح الطيب، ج.1، ص. 5.

6- عبد الواحد المريني: عيّن وليا للعهد في عهد والده السلطان أبي يوسف يعقوب المريني (ت 685هـ) إلا أنه توفي عام(671هـ) في حياة والده. ينظر: ابن الأحمر، السابق، ص. 20-21.

7- الونشريسي، المعيار المغرب ج329/6.

كل هذا وغيره كان له دور في دفع الحركة العلمية والنهوض بها على درجات عالية مما أوجد في فاس وتلمسان جوا علميا زاخرا كان له تأثير في شخصية ابن قنفذ وغيره من علماء عصره الذين صقلوا مواهبهم، وشحذوا هممهم في هذا الميدان العلمي بظهور وبروز خيرة المشايخ والعلماء الذين أخذوا عنهم.

وقد تميز العهد المريني بعلماء أجلاء اتصفوا بقوة الشخصية ويلاحظ هذا كذلك لدى العلماء الحفصيين من إفريقية وقسنطينة وبجاية وغيرها من حواضر العلم من كان لهم تأثير على أمرائهم وردهم إلى جادة الصواب كلما حاولوا انتهاك حقوق المسلمين، وعدم السكون والخضوع لهم، وقد نقل لنا التاريخ نماذج عالية من مواجهة العلماء للحكام في هذه الفترة كما وقع للإمام أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني[1](ت771هـ، 1369م) في مواجهة بينه وبين السلطان أبي عباس فيقول للسلطان" إن كلامك قد ضرني أكثر مما نفعني ونقص به ديني وعلمي فغضب السلطان وأمر بإلقائه في السجن ثم أطلقه واعتذر إليه مما بلغ استياء العامة والخاصة من ذلك".[2]

ويذكر المقري أنه سمع شيخا ينشد أمام باب السلطان بمراكش أبياتا يقول فيها:

أبصرت أبواب الملوك تغص بالـ ... راحلين أدراك العلا والجاه.

متوقبين لها أن فتحت خروا للأذقان لهم والجاه.

فألفت من ذاك الزحام لبعض على انضياء جسمي وأشفقت الواهي.

ورأيت باب الله ليس عليه من ... متزاحم فقصدت باب الله.

1 - هو أحد أعلام القرن الثامن له عدة شروح ومختصرات مثل شرح الجمل للخونجي. ينظر: التمبكتي، نيل الإبتهاج، ج1، المصدر السابق، ص. 255.

2 - المقري، نفح الطيب، ج.5، المصدر السابق، ص. 322.

وجعلته من دونهم لي عدة[1] وأنفت من غيي وطول سدفاه

إنشاء المدارس:

كما اهتم المرينيون والحفصيون ببناء وإنشاء المدارس لتكون مقصدا يتوافد عليه الطلبة لتلقي العلوم نقليها وعقليها ورتبوا فيها العلماء لإلقاء الخطب والدروس

مدرسة الحلفانيين بفاس[2] وهي من أوائل ما أنشأ المرينيون وبها جهة لإيواء الطلبة ومكتبة ملاى بعناوين مختلفة من المؤلفات في الفقه والتصوف وغيره من العلوم،[3]مدرسة السبعيين بفاس،[4] ومدرسة العطاريين والمدرسة المصباحية والمدرسة البوعنابية كلها بفاس بناها السلطان أبو عنان المريني وقد استغرق بناؤها 6 سنوات (751- 756 هـ).

وقد كانت قسنطينة خلال القرن الثامن الهجري من المدن الهامة في الشرق من المغرب الأوسط، باعتبارها قاعدة حفصية ثانية بعد تونس السلطة المركزية.

وقد فضل الكثير من سلاطين وأمراء الدولة الحفصية العيش بها وجعلوها قاعدة حربية مميزة لموقعها الجغرافي، ما أهلها لأداء أدوار أساسية سياسية وعسكرية هامة في المنطقة.

كما أن كثيرا من السلاطين والعلماء في الدولة الحفصية ولدوا في قسنطينة وتعلموا بها. ويقول ابن قنفذ عن السلطان أبي فارس: "وحل البدر في شرفه ومسقط رأسه ومؤتلفه لأن بقسنطينة ولادته وولادة الثلاثة من أبنائه ولها بذلك شرف على غيرها من البلدان".[5]

وقد تميزت قسنطينة بنهضتها العلمية والثقافية في هذه الفترة لم يشهد لها مثيل، ظلت على عهدها حتى في الظروف السياسية المضطربة. ويعود ذلك لعدة عوامل منها تميز الأمراء وحكام المدن بنزعة علمية وتشجيعهم للعلم والعلماء على البحث والتدريس والتأليف، وتقديرهم لرجال الفكر وعلى

1 - المصدر نفسه، ص. 323.

2 - من مدارس بني مرين أسسها يعقوب بن المنصور بالله سنة 671هـ وزودها بمكتبة متنوعة. ينظر: ابن الأحمر، المصدر السابق، ص. 78.

3 - ابن القاضي، لقط الفرائد، المصدر السابق، ص. 181.

4 - سميت بذلك لأنها كانت تدرس فيها القراءات السبع ومدرسة العباد قرب تلمسان من بناء أبي الحسن والمدرسة البوعنابية بمكناس ومدرسة القاضي بمكناس والمدرسة العجيبية بسلا وطنجة وسبتة وتازا. ينظر: المغرب عبر التاريخ 157/2.

5- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 193.

التسهيل بإنشاء المراكز العلمية والمساجد والكتاتيب عبر المدن.وتنافس الأمراء على استقطاب أشهر العلماء من الأقطار المجاورة كالمغرب والأندلس واقتناء الكتب.

كما كان لموقع المدينة الذي يتوسط قطبين ثقافيين هامين هما مدينة تونس شرق وبجاية غربا، أثر في مرور قوافل الحجاج والعلماء والطلاب للاتجار بها وطلب العلم.

وبفضل هذه العوامل ظهرت بيوتات عريقة ذاع صيتها بمحافظتها على مكانتها العلمية والثقافية كآل الفكون وباديس وآل قنفذ وآل عبدون، ومن بين هؤلاء وأبرزهم أبو العباس أحمد الخطيب المشهور بابن قنفذ.[1]

ورغم احتدام الصراع بين دويلات المغرب الإسلامي ورغم الحروب الطاحنة التي دارت بينها، فقد شهدت حركة علمية كبيرة وإنتاجا ثقافيا وفكريا غزيرا.

وقد كان لهذه الاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية بعض الآثار السلبية على الحياة الثقافية إذ أن بعض العلماء قد هاجروا إلى المشرق ولجأ بعضهم إلى خدمة الأمراء في حين فضل بعضهم الانزواء.

وهذا لا يعني أن الحياة الثقافية قد ارتسمت هي الأخرى بشكل الصورة القاتمة التي عرفتها الحياة السياسية، بل كانت بداية القرن التاسع الهجري(15م) عهد إنتاج ثقافي وفير، وكانت المدن تتسع بمدارسها ومساجدها التي غذت المجتمع عقليا وروحيا.

ومن هذه المدن بالقطر الجزائري نذكر تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة. واشتهرت عائلات أخرى بالتدريس والفتيا والتأليف. فتلمسان مثلا ظهرت بها عائلتا المقري والعقباني، وقسنطينة عائلة ابن باديس وابن قنفذ وبجاية عائلة المنجلاتي والمشدالي، وبالجزائر عائلة ابن السكات وزاهذها عبد الرحمن الثعاليبي وغيرها من الأسر.

إن ما ميز عصر ابن قنفذ ازدهار التصوف وذيوعه في سائر الأنحاء. فقد قطعت الحركة الصوفية أشواطا بعيدة منذ عهد الموحدين وأحرزت تقدما ملحوظا، إلا أن الأوساط العلمية كانت في أغلب الأحيان لا تزال متمسكة بموقف معتدل في الصراع الحاد القائم منذ قرون بين أنصار العقلانية المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، وبين أعدائهم من الصوفية بصفة خاصة.

ومع نهاية القرن الثامن تغير الوضع بصفة ملحوظة إذ تمكن[1] التصوف من التوغل في جميع الأوساط وحتى بين العلماء والفقهاء الذين

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص. 154.

تأثروا ببعض مؤلفات الغزالي، وخاصة في إحيائه مما جعله يقوم على نشاط اجتماعي تنظمه عدة طرق وما تفرع عنها في سائر أنحاء المغرب[2].

وقد أعلن فريق من علماء السلفية استنكارهم للبدع التي أدخلت على حركة التصوف كابن مرزوق الحفيد[3] وابن زكري[4] حيث قام صراع عقائدي ومناظرات بين فريقي السلفية وحصة من المتصوفة.

ومن أهم سمات هذه الفترة ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا وانفتاح عهد التصوف العلمي وذلك بسبب ضعف الدولة أمام الانقلاب الداخلي والخطر الخارجي.

وقد كان إنتاج علماء المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين15/14م في ميدان التاريخ والأدب قليلا، بينما كان إنتاجهم الروحي أغزر مادة وأقوى تعبيرا حيث امتد تيار المدرسة الوغليسية ببجاية ومدرسة حسن بن باديس بقسنطينة، ليشمل القطر الجزائري كله. فكان في مدينة وهران محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي، وفي الجزائر عبد الرحمن الثعاليبي وتلميذه أحمد الجزائري وفي تلمسان محمد السنوسي[5].

وقد ازدهرت في هذه الفترة العلوم النقلية على حساب العلوم العقلية، خاصة وأنها كانت تمكن الطلبة من الحصول على الوظائف الهامة كالقضاء والدواوين الإدارية وغير ذلك من المناصب.

ونبغ في هذه الحقبة ثلة من العلماء، منهم والد المؤلف حسن بن علي بن قنفذ (ت750هـ ، 1349م) وابن مرزوق الخطيب والوغليسي وغيرهم كثير.

وإلى جانب الاهتمام بالعلوم النقلية، كان الاهتمام بعلوم أخرى كالفلك، والرياضيات، والطب، والكيمياء، وغيرها، حيث حققت رواجا كبيرا ونبغ فيها ابن قنفذ القسنطيني مقصود هذه الدراسة.

كما حظيت الدراسات اللغوية من العلوم والآداب بإقبال طلبة العلم، وزاد الاهتمام باللغة العربية والبلاغة من قبل العلماء.كما اشتهرت العلوم الاجتماعية

1- عبيد بوداود، المرجع السابق، ص. 143. ينظر: المهدي البوعبدلي، أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، مجلة الأصالة، العدد: 26، سنة 1975، ص. 125.

2 - ابن خلدون، بغية الرواد، ص ص 100، 101

3 - التمبكتي، تيل الغبتهاج،ج 1، ص 62

4 - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص .146

5 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 103.

كالتاريخ والتراجم والمنطق والتصوف.[1] خلال هذه الفترة وتنامي الاهتمام بها.

الرحلات العلمية:

كانت الرحلات بين دول المغرب الإسلامي إحدى الوسائل المهمة لنقل العلوم والمعارف من قطر لآخر، ويحفظ التاريخ أعلاما كبارا اشتهروا برحلاتهم المشرقية والحجازية وبعد عودتهم ترأسوا مراكز علمية كبيرة ، كأسد بن فرات،[2] وأبو الوليد الباجي،[3] والمقري وغيرهم، كانوا من أبرز من ارتحلوا للمشرق والديار المقدسة وعادوا بزاد علمي.

وتعد رحلة محمد بن عبد الله الطنجي المعروفة برحلة ابن بطوطة (ت775هـ ،1373م)[4] من أوسع الرحلات نظرا لكثرة البلدان التي زارها وتولى القضاء في بعض البلاد التي نزل بها وحصل على إجازات بعض العلماء منها.

كما قام أبو علي منصور المشدالي (ت731هـ ،1330م) برحلة طويلة استغرقت عشرين عاما التقى فيها بالعز بن عبد السلام وابن الحاجب[5]كما قام المقري برحلة للمشرق حوالي عام(744هـ ، 1343م)[6] والتي أسماها نظم اللآلي في سلوك الأمالي، وكان من المحفزات على رحلته شيخه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور (ت750هـ ، 1349م). واستزادته عن مشايخ الحجاز في المشرق.

المناظرات والمراسلات:

لقد كان للمناظرات والمراسلات التي حصلت بين العلماء المتعاصرين في مختلف الفنون مجالا لتداول وتبادل الآراء العلمية والفقهية ومناقشة المسائل والأقوال بمقاييس علمية أسهمت في نشر العلم وشيوع المعرفة وبعثها، وكان شغف الناس بالعلم حافزا على متابعة الآراء سلبا وإيجابا.

ففي عصر المقري برزت مناظرات ومراسلات بين العلماء والفقهاء من أهمها مسألة مراعاة الخلاف في المذهب المالكي، إذ جرى حولها حوار بين

1- سعيدوني [وآخرون]، الجزائر في التاريخ، ج.3، المرجع السابق، ص ص. 439-451.

2- هو أسد بن فرات بن سنان مولى بن سليم ابن قيس كنيته أبو عبد الله، سمع من مالك موطأه، ينظر ابن فرحون، الديباج المذهب، ج.1، المصدر السابق، ص. 268.

3- هو أبو الوليد ابن خلف بن سعد بن أيوب الباجي أحد كبار علماء وفقهاء المالكية له عدة مؤلفات في الفقه وأصوله، ينظر: ابن فرحون، المصدر السابق، ص. 330.

4- هو محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة له رحلته المشهورة برحلة ابن بطوطة المعروفة " تحفة النظار في غرائب الأمصار" ابتدأها في 2 رجب عام 735 قاصدا الديار المقدسة مرورا بتونس، الإسكندرية والقاهرة وفلسطين ودمشق ومكة والمدينة والعراق واليمن وغيرها من أعظم الرحلات المغربية. ينظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، 2003، ص.138.

5- مخلوف، المصدر السابق، ص ص. 217-218.

6- التنبكتي نيل الابتهاج ص. 251.

أبي العباس القباب(ت776هـ ، 1374م) والقاضي أبي عبد الله القشالي(ت777هـ ، 1375م) وانظم إليهم أبو إسحاق الشاطبي(ت790هـ ،1388م)[1] وقد أشار إليها التمبكتي، وهذه دلائل واضحة على نشاط سوق العلم والمعرفة في ذلك العصر.

كما كان لتأسيس المدارس بتلمسان وقسنطينة وبجاية الأثر البالغ في دفع الحركة العلمية والثقافية، وإقبال الطلبة على نهل علومها وإتقانها وبروز الدور الجاد للأمراء الزيانيين، واهتمامهم بالعلم ورعاية أهله فخصصوا للطلبة الأرزاق والجرايات،[2] وإنشاء المكتبات العامة بالمساجد والمدارس. وزاد اهتمامهم هذا عبر العهود المتوالية وقوي أكثر من ذي قبل حتى غدت تلمسان وقسنطينة أهم مراكز المغرب الأوسط علما وفكرا وثقافة، ضف إليها بجاية مركز الإشعاع المعرفي وتضاهي مراكز المغرب الأقصى وإفريقية وحتى المشرقية منها ثقافة وعلما، ولا تقل عنهم، ولذا نبغ فيها جيل صالح من العلماء والفقهاء أمثال العقباني، والبجائي، والفكون، وصاحبنا ابن قنفذ، والغبريني، والمقري وغيرهم من خيرة العلماء، وخلفوا تلاميذ أجلاء خاضوا في حقول العلم حاملين مشاعل الفكر للأجيال المتوالية أمثال ابن مرزوق الحفيد وغيره،[3] واتبعت في ذلك مناهج حسب العلوم ولكل طريقته في التلقين والتدريس، وهذا ما أدى إلى نضج التكوين العلمي من هذه الزمرة من علماء المغرب الإسلامي الذين تركوا بصماتهم، وإنتاجهم الفكري دال على ذلك، ومن أشهرهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني[4] وغيره أخذ عن جملة من العلماء البارزين، وكان من الموسوعيين نبغ في العلوم نقليها وعقليها وأمثلة أمثاله كثيرة.

وكذا علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي[5] ولد سنة(710هـ ، 1310م) ببجاية، ونشأ بها وأخذ عن أبيه وغيره من علمائها مثل المشدالي والبجائي، ثم رحل لتلمسان في عهد أبي الحسن المريني، ثم أجاز إلى الأندلس آخذا عن علمائها، وانتصب للتدريس بها ثم استقر بتلمسان وكان بارعا في

1- التمبكتي، نيل الابتهاج، ج.1، المصدر السابق، ص. 73. وقد أورد الونشريسي هذه المباحث في المعيار ج.6، ص.387. كما ذكرها النباهي في تاريخ قضاة الأندلس، ص. 170. ينظر: الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج.2، ص. 248. ونفح الطيب ج.5، ص. 220. والمعيار، ج.6، ص. 361.

2- أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، تحقيق: حاجيات، ط.2، 1982، ص. 159.

3- المرجع نفسه، ص. 160.

4 ابن مريم، البستان، ص. 117. نيل الابتهاج، ص ص. 150-159.

5- ابن مريم، المصدر السابق، ص ص. 292-294.

الأصول والمنطق وعلم الكلام، ذا اطلاع واسع في علوم عدة. من تلاميذه أبو إسحاق الشاطبي والمقري الكبير وابن الخطيب ويحي ابن خلدون وغيرهم.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الخطيب[1] ولد بتلمسان في أواخر(710هـ، 1310م) ونشأ بها كان من أبرز علماء المغرب الأوسط قاطبة تتلمذ على يديه ثلة من أشهر العلماء من بينهم ابن قنفذ والشاطبي[2] ولي التدريس والقضاء، وأقام بالقاهرة وتوفي بها سنة(781هـ، 1379م).

له شرح البردة، وشرح على ابن الحاجب، وشرح عمدة الأحكام على خمسة أجزاء وانتقل إلى تونس واستقر بها كما ولي الخطابة على عهد الحفصيين.

كما انتشرت المساجد والزوايا ببجاية، وتلمسان، وقسنطينة، وفاس، وتونس التي اعتبرت مراكز علمية مساعدة ومكملة لدور المدارس والمراكز الكبرى، واحتوت على خزائن للكتب وإصدارات العلماء وإنتاجهم خلال هذه الفترة كلها. كانت الركائز الأساسية للحركة الفكرية بالمغرب الأوسط وجاريه الأقصى والأدنى، وكانت مدعاة للتبادل العلمي والفكري والثقافي باعتماد الرحلات والمراسلات، ولعناية بعض سلاطين هذه الدول بالعلم وأهله، فقد بنى أبو عنان بن أبي الحسن مدرسة عرفت باسمه سنة(754هـ، 1353م) وعني سلاطين

بنو زيان بالعلم والعلماء وتقريبهم إليهم فقد فتح يغمراسن بن زيان[3] الأبواب على مصارعها لجلب العلماء والعناية بهم،[4] وحتى أثناء استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط لم يهملوا الحركة العلمية التي أرساها الزيانيون، كما أن للامتزاج بين عناصر المجتمع والمكونة لهذه الدويلات ساهم في هذا الثراء الفكري والعلمي، وكتب التراجم التي يملأ سوادها الكم الهائل من تراجم العلماء والفقهاء الذين عاشوا في تلك الفترة يؤكد هذه الوحدة [5] الثقافية للمغرب ومما زاد ثراءها هو وحدة المذهب خاصة في أصوله، ضف إليها كثرة الرحلات فيما بينها وتبادل العلوم ومناهج بين العلماء والفقهاء خاصة بين فاس

1 - المقري، نفح الطيب، ج.7، ص. 309. وينظر: ابن مريم، البستان، المرجع السابق، ص ص. 184-190.

2 - التمبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص.47.

3- يغمراسن بن زيان، أحد ملوك بني عبد الوادي، ومؤسس الدولة العبدوادية بتلمسان سنة 633هـ. ينظر: ابن خلدون، بغية الرواد، ص. 193.

4 - يحي بن خلدون، بغية الرواد، ص ص. 204-205.

5 - بوعياد، المرجع السابق، ص.47.

وتلمسان[1] وقسنطينة وبجاية وتونس هذه الأخيرة التي أنجبت خيرة العلماء يشهد كل عهد بما قدموا

- جوانب من الحياة الفكرية والثقافية بقسنطينة خلال القرن الثامن الهجري:

إن الصورة المضطربة للحياة السياسية التي عشتها مدينة قسنطينة في بعض الفترات من العهد الحفصى، لم تؤثر على النهضة الفكرية والثقافية التي انتشرت بينها، ربما يعود إلى الدعوة الموحدية التي كانت تحمل في طياتها بذور نهضة فكرية وعلمية حقيقية في ربوع المغرب العربي الإسلامي قبل سقوطها.

فقد بذل الموحدون جهودا معتبرة في سبيل توحيد بلاد المغرب ونشر دعوتهم في مدنه وقراه وباديه، وبين مختلف طبقات المجتمع المغربي، فانتشرت بذلك تعاليم الإسلام وأصوله وتعمقت في نفوس أهله.[2] وبما وفره الموحدون من جو ملائم لعقد الجلسات الفكرية والحلقات العلمية بين العلماء والفقهاء والأدباء والطلبة لدراسة مختلف المسائل الفقهية والعلمية والأدبية واللغوية[3].

وعلى عهد الحفصيين تدعمت هذه القاعدة الثقافية، وساروا على درب أسلافهم في تدعيم هذه النهضة العلمية وتطويرها، بتشجيع العلم والعلماء طيلة ثلاث قرون من الزمن، فقد كانت المنافسة قائمة بين سلاطين بلاد المغرب وأمرائه في تشجيع نشر العلم والتعليم، واستقطاب مشاهير العلماء والأدباء والفقهاء- كما أشرنا سابقا- وفي إنشاء المؤسسات الدينية والعلمية.[4]

وإذا كانت المصادر قد سكتت عن ذكر الأرقام الحقيقية والدقيقة في هذه الفترة لعدد المدارس والمساجد في مدينة قسنطينة، فإنها قد أسعفتنا بذكرها خلال الحديث عن مدينة تلمسان في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، حيث بلغ عددها خمسة مدارس، وأن عدد مساجدها زاد عن ستين مسجدا،[5] كما أن مدينتي تونس وفاس حظيتا ببناء مساجد كثيرة مقارنة مع تلمسان، ولذلك فمن البديهي والحالة هذه أن تكون مدينة قسنطينة هي الأخرى قد عرفت مثل هذه المؤسسات التعليمية والتربوية والدينية، وبذلك تكون قد عرفت حركة بناء واسعة في هذا الكجال خلال العهد الحفصى.

---

1 ـ محمد حاجيات، المرجع السابق، ص. 43.

2-سعيدوني [وآخرون]، المرجع السابق، ص. 437. ينظر أيضا: محمد عيسى الجزيرى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المرينى، ص. 337.

3 ـ المرجع نفسه، ص. 340.

4- سعيدوني [وآخرون]، المرجع السابق، ص. 437.

5- أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، المرجع السابق، ص. 34.

وقد كانت العلوم الدينية في هذه الفترة تحتل الصدارة بين العلوم الأخرى، وأن الطابع الديني هو السائد في ذلك العصر، ولهذا فقد ازدهرت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا ولا سيما منها التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، إذ كثر الإقبال عليها والتوسع في دراستها، وكثر المشتغلون بها لأنها توفر لهم وظائف رفيعة في الدولة، كالقضاء والإفتاء، وفي الدواوين الإدارية وغيرها من خطط الدولة التي كان الدارسون المتخرجون يتهافتون عليها.[1] بالإضافة إلى المكانة الاجتماعية الممتازة التي كان يتمتع بها علماء ذلك العصر، بين الفئات المختلفة للمجتمع المغربي وطبقاته.

كما ازدهر علم التفسير وعلوم القرآن، هذا الأخير الذي يعتبر المصدر الأول للتشريع الإسلامي، كما لقي علم الحديث هو الأخر رواجا كبيرا في مدينة قسنطينة، لأنه يعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي.

وأما الفقه فقد تقدم تقدما ملحوظا، والدليل على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العلم وما خلفوه لنا من مؤلفات ومصنفات عديدة ومتنوعة في هذا الشأن.[2]

وقد شجع أمراء قسنطينة الفقه وقربوا إليهم رجاله، حتى صار البلاط يعج بهم، وأصبحت لهم مكانة سامية ومرموقة عند الحكام الذين لم يتوانوا في منحهم المراتب العليا والمناصب الرفيعة في مجالات الخطابة والإفتاء والقضاء، ولذلك امتازت كتابتهم مفحمة التحصيل.[3]

ويكفي للتنويه بكثرة هؤلاء الفقهاء في العهد الحفصى، أن الذين لقوا حتفهم من علماء افريقية في بلاط أبي الحسن المرينى(731-749هـ/1331-1348م)، بسبب غرق السفن التي كانت تقلهم من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى، قارب عددهم نحو أربعمائة عالم من خيرة ما أنجبت بلاد افريقية والأندلس.[4]

ولم تكن الحياة الفكرية في مدينة قسنطينة، قاصرة على العلوم الدينية فحسب، بل شملت أيضا مختلف المواد العلمية الأخرى، وإن كانت بصورة أقل كالعلوم الإنسانية والعلمية المتمثلة في اللغة، والأدب، والنحو، والتاريخ،

1- سعيدوني [وآخرون]، المرجع السابق ، ص. 439.
2- عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج. 1، المرجع السابق، ص. 189، محمد عيسى الجزيرى، المرجع السابق، ص. 341.
3- المرجع نفسه، ص. 343.
4- محمد طالبي، الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين، مجلة الأصالة، العدد: 26، 1975، ص ص. 53- 54.

والسير، والرحلات، والجغرافية، والفلك، والرياضيات، والفلسفة، والمنطق، والطب، وعلم النبات.

قد حظيت هذه الجوانب من قبل علماء قسنطينة وطلابها بإقبال كبير، حيث انكبوا عليها لإشباع ضمئهم من هذا المعين على يد كبار رجالاته، فأعطت بذلك دفعة قوية للحياة الثقافية والتربوية والعلمية في المدينة،[1] حتى نبغ في هذا الميدان بعض القسنطينيين أمثال الرياضي البارع أحمد ابن يونس القسنطيني المتوفى(876هـ/1470م)، الذي اشتهر بتدريس الحساب وعلم الفلك في مدارس الحجاز، بينما اشتهر ابن القنفد القسنطيني المتوفى سنة(809هـ/1406م)، بالتأليف والتصنيف في المواد المذكورة، وبرع في التاريخ والحساب حتى غدا قطبا من أقطابهما في ذلك الوقت.[2]

المراكز التعليمية:

كان أهل قسنطينة منذ القديم يعتنون بالمؤسسات التعليمية والتربوية والدينية عناية خاصة، وربما يعود ذلك إلى استقرارها السياسي النسبي من جهة، أو لموقعها الجغرافي القريب من مدينة تونس عاصمة الدولة الحفصية. التي تعد بدورها نافذة من النوافذ الهامة لأهل المغرب المطلة على بلاد المشرق، الذي يتمتع بتجربة رائدة في هذا الميدان وقتها،[3] حيث اهتم أهل قسنطينة كغيرهم من أهل الحواضر المغربية البيرة بالمدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب، ورفعوا من شأنها في العهد.

كما كانت المساجد قبل تأسيس المدارس، هي المؤسسة الوحيدة التي كانت تستقبل الطلبة، وفي الواحد منها تعقد عدة حلقات دراسية للطلاب، كانت تؤدي في بعض الأحيان إلى حدوث ضجيج داخل المسجد يعرقل القراء والمصلين، والظاهر أنه لهذا السبب فكر المسلمون في إنشاء أماكن أخرى للتعليم أطلق عليها المدارس، وكان بعضها ملحقا بالمساجد، بينما كان البعض مستقلا عنها، كما خصصت بنايات أخرى لتعليم الأطفال سميت بالكتاتيب.[4]

ومهما تحدثنا عن إنشاء المدارس في مدينة قسنطينة، فإن ندرة المصادر وصمتها في هذا الباب تحيل بيننا وبين معرفة أسمائها وعددها ومنشآتها وعدد طلبها والمتخرجين منها سنويا، وعدد شيوخها ومعرفة أصولهم وجنسياتهم

1- سعيدوني [وآخرون]، المرجع السابق ، ص. 439.

2-ابن مريم ، المصدر السابق، ص. 210. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج. 2، المرجع السابق، ص. 266.

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1 ، المرجع السابق، ص. 108.

3- المرجع نفسه، ص. 185. وج. 5، ص. 80.

4- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1999، ص. 115.

بالتدقيق والتفصيل، إلا أنه يمكن أن نستنتج بأن عدد الذين كانوا يحصلون على الإجازة سنويا، يتناسب مع احتياجات الدولة من إطارات التعليم والقضاء والإدارة، وكان بعضهم يختار الأعمال الحرة كالتجارة ومهنة الوراقة.[1]

وكانت الدولة الحفصية تشجع على التعليم وتقدم إغراءات للطلبة بإعطائهم المنح، على شكل هبات مختلفة وعطاء معلوم سواء منها النقود أم المؤن أو الملابس لمدة سبع سنين كاملة

وكان الطلبة ينقسمون إلى صنفين أو فئتين، الفئة الأولى تتكون من أبناء المدينة، وتكون نفقة هؤلاء على حساب أوليائهم، أما الفئة الثانية التي تتكون من أبناء الريف والغرباء ومن المدن النائية فتقدم لهم مساعدات ومنح من طرف بيت المال ومن الأوقاف الخيرية ويقيمون المراكز التابعة للمدرسة.

كما كان للمدرسة مكانا مخصصا للصلاة ومنارة ومنبر، وهو الشيء الذي يؤكد على إقامة الصلوات في بعضها. أو بعبارة أدق كانت إلى جانب كونها أداة للتعليم صارت أيضا مكانا للعبادة.

أما الزاوية، فهي الأخرى كانت تلقى فيها الدروس وتقام فيها الصلوات الخمس مثل زاوية الملارى الصوفي وهو جد ابن قنفذ من أمه.

كما تأثرت مدينة قسنطينة كغيرها من حواضر بلاد المغرب بالجانب الصوفي، ولا سيما في العهد الموحدي، ولعل الاعتقاد بالشيخ والالتفاف حول الزاوية والضريح ازداد غلوا وانتشارا في الأوساط الشعبية في القرن الثامن والتاسع الهجريين، وأصبحت الزاوية تنافس المسجد والمدرسة في نشر التعليم.[2]

وأما المسجد، فهو عبارة عن جامعة أو معهد عال بالإضافة إلى كونه مؤسسة للعبادة، تلقى فيه الدروس وتعقد فيه حلقات البحث، وتنظم فيه المحاورات الفقهية، والمناظرات العلمية، والمطارحات الأدبية واللغوية ودروس الوعظ والإرشاد والإفتاء.

كما كان يجتمع فيه أيضا أصحاب المصالح العامة والخاصة، وكانت تقرأ فيه البلاغات الرسمية للدولة، ويجتمع فيه الأدباء لتدبير زواج أبنائهم وبناتهم، وتمضى فيه العقود التجارية، وتؤخذ إليه الجنازة قبل دفن للصلاة عليها.

وللمسجد موظفون كثيرون من أئمة، ومؤذنين، وقيمين، وحراس، ومدرسين، وقراء حزب وأهل إفتاء، فضلا عن المتطوعين للتدريس والإرشاد،

1- لطيف الله قاري، الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص. 33.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، المرجع السابق، ص. 38. بوداود عبيد، المرجع السابق، ص. 68.

ومن بين هذه المساجد الكبيرة في مدينة قسنطينة. الجامع الكبير والمسجد الأعظم بالقصبة.[1]

بالإضافة إلى هذه المؤسسات كانت للمجالس العلمية التي تعقد في قصور الأمراء، وفي بيوت العلماء وعند بعض الأسر، دور بالغ الأهمية في إثراء الحركة الفكرية وازدهارها، خاصة مع وجود علماء وأمراء شغوفين بطلب العلم يقدرون منزلة العلم والعلماء، وتشير بعض النصوص التاريخية إلى أن أبا زكريا الأول كان يختم على الشيخ الرعيني السوسى كتاب "المستصفى" للغزالي، وكان يناظر في النحو واللغة على " ابن عصفور" و "ابن الحاج" وكان يعد من المضلعين في الفقه والأدب والشعر، وقد ضرب في هذه العلوم بسهم وافر.

وكان أبو زكريا الثاني (675-678هـ -/1277-1279م-). يقوم بتشجيع المشتغلين في حقل التعليم إذ وجه إلى المدرس القدير " أبو العباس أحمد الغرناطي" صاحب المصنف المشهور "بالمشرق في علماء المغرب والمشرق" مكافأة مالية جزيلة ورعاه بعطفه وأعطاه- كما تشير المصادر- ذهبا وفضة وأمره بتفريقها على الطلبة والأساتذة بالمدرسة بدون تميز تشجيعا لهم. وكان هذا الأمير يحضر مجلس الغرناطي عندما يقوم بالوعظ والإرشاد، كما أجرى على المدرسة أرزاقا معلومة في كل شهر.

تقتصر المنافسة على الأمراء في بذل العطاء وإنشاء المدارس فقط بل امتدت إلى الأميرات الحفصيات اللائي كن لا يدخرن وسعا في بناء المدارس والمساجد مثل الأميرة عطف التي قامت بتشييد مدرسة التوفيقية العتيقة بتونس، وأم الخلائف التي أنشأت المدرسة التي تقع عند جامع الهواء.[2]

منهج التعليم ومقرراته:

لم نعثر حتى الآن في المصادر التي بين أيدينا على مواضيع تتعلق بمنهج التعليم ومقرراته والمراحل التي يقضيها الطالب في المدارس، والطريقة السائدة عند شيوخ مدينة قسنطينة وعلمائها في العهد الحفصى، غير أنه من حسن الطالع أنه قد أشار إلى هذه المواضيع المؤرخ والفقيه البجائى أبو العباس أحمد الغبرينى المتوفى سنة(704هـ-/1304)في كتابه " عنوان الدراية"،[3] والذي عاصر الدولة الحفصية، كما ترك لنا بعض النتف والشذرات عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته، ويمكن من خلالهما أن نستنتج الطريقة السائدة في تقديم الدروس وإلقائها على الطلبة ببجاية وتونس والمنهج المتبع حينذاك،

1- ينظر: محمد المهدي، أم الحواضر، المرجع السابق، ص. 232.
2- الغبريني، عنوان الدراية، ص. 22.
3 - الغبريني، المصدر السابق، ص. 29.

وأهم الكتب والمواد التي كان الطلاب يدرسونها والمراحل التي يقطعونها في التعليم. والظاهر أن ما ذكره كل من الغبريني وابن خلدون ينطبق على مختلف الحواضر المغربية عامة والحواضر الحفصدية بصفة أخص ومنها مدينة قسنطينة. لأن سياسة التعليم في هذه الفترة كانت موحدة، ولا سيما وأن المؤرخ الغبريني كان كثير التردد على مدينة قسنطينة للالتقاء بأمرائها وطلابها.[1]

وأما المواد الدراسية كما هو واضح في نصوص" عنون الدراية" يغلب عليها الطابع الديني أي أنها ذات صبغة إسلامية تتلاءم مع روح ذلك العصر تدرس في كل من تونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس.[2] وقد كان التعليم في المؤسسات التعليمية لمدينة قسنطينة يمر بثلاثة مراحل كما هو الشأن في الحواضر المغربية الأخرى. ويتوجه الطالب إلى المدرسة أو الكتاب في المرحلة الأولى في سن السادسة يتعلم فيها فن القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وبعض القواعد العامة والخط.

ويلاحظ أن التعليم في هذه المرحلة قد احتكره شيوخ الأندلس، ولذلك أصبحت الطريقة الأندلسية في تحفيظ القرآن وتدريسه هي السائدة في المدارس الإفريقية الحفصية، كما يشير الغبريني لكثرة المهاجرين الأندلسيين إليها في بداية العهد الحفصي.[3] ويضيف ابن خلدون في هذا الصدد بقوله:" وأما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته التي ممن سواه، وعنايتهم بالخط لذلك وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس".[4]

وأما المرحلة الثانية فقد كان الطلبة يدرسون فيها قواعد النحو والأدب والفقه وروايات القرآن، لتمكنهم هذه المواد من بلوغ مستوى ثقافي وتعليمي معتبر، وبالتالي الوقوف عند معرفة تعاليم الدين وأصوله والإلمام بالعلوم الإنسانية.[5]

ويتلقى الطلاب في المرحلة الثالثة العلوم الدينية بشيء من التعمق والتوسع كعلوم التفسير وفن القراءات والفقه والتوحيد والحديث ومختلف العلوم الاجتماعية، وفي الأدب واللغة والفلسفة والتاريخ وغيرها بمزيد من التفصيل في المدارس القسنطينية، وفي المسجد الكبير والمسجد الأعظم بالقصبة، وأما من أراد الاستزادة من هذه العلوم وأخذ الإجازة فيها، ينتقل إلى جامع الزيتونة

1- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 56.
2- الغبريني، المصدر السابق، ص ص. 25-28.
3- ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص. 307.
4- ابن خلدون، كتاب العبر، ج.6، ص751.
5- سعيدوني [وآخرون]، المرجع السابق، ص. 438.

والقرويين، وهو الأمر الذي سهل على طلاب العلم الانتقال من بلد إلى بلد سعيا وراء المعرفة، وأصبحت الرحلة في طلب العلم من التقاليد المحمودة والراسخة عند أهل المغرب.[1]

وكان التدريس في المرحلة الثالثة كثيرا ما يشهد منافسة بين علماء أهل الأندلس وعلماء افريقية لأن التعليم في هذا المستوى يجلب لصاحبه الاحترام والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة والثراء والنفوذ، لكن أمراء بني حفص كانوا يميلون إلى علماء الأندلس، لشهرتهم وكفاءتهم من جهة، وللأسباب التي ذكرناها سابقا، والدليل على ذلك ما فعله السلطان المستنصر مع أبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس من كرم الضيافة وحرارة الاستقبال، الذي يليق بمقامه، كما اسند إليه " تدريس العلم بالمدرسة التي تقع عند جامع الهواء والتي أنشأتها أم الخلائف".[2]

والظاهر أن علماء الأندلس ظل عددهم يزداد في الحواضر الحفصية ويتكاثر، وأن إشعاعهم الفكري والتربوي كان قويا لدرجة أنهم استطاعوا أن يفرضوا نوعا من الوصاية الحضارية الأندلسية على الدولة الحفصية خاصة والدول المغربية عامة.

وقد قام أحد الباحثين بإحصاء عدد الشيوخ الأندلسيين الذين دخلوا تراب الدولة الحفصية (في القرن(7هـ/13م-) من كتاب رحلة ابن رشيد فوجدهم قد بلغوا ما يزيد عن 35 عالما أندلسيا، وقام آخر بنفس العملية من كتاب عنوان الدراية السالف الذكر، فوجد أن الذين دخلوا مدينة بجاية واستقروا بها يزيد عددهم عن 33 عالما من علماء الأندلس نزحوا إلى الديار الحفصية.

أما عن مواد المدرسة، فقد كان الطالب يحفظ هذه المواد عن ظهر قلب ويدرسها من خلال كتب مقررة عليه لأشهر العلماء والفقهاء والأدباء واللغويين والشعراء سواء منهم المشارقة أم المغاربة أم الأندلسيين. ومن بين هذه الكتب والمصنفات التي يدرسها طلاب العلم خلال المراحل الدراسية في ذلك العصر ما يلي:

كتب تفسير القرآن:

- الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي.
- أحكام القرآن لأبي الحسن على بن محمد الطبري.
- كتاب التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي.

1- الغبريني، المصدر السابق، ص. 36.

2- أبو القاسم سعد الله، عبد الكريم الفكون داعية الإسلام، المرجع السابق، ص. 48.

- الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لأبي محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي.
- الكاشف عن حقائق التنزيل لأبي القاسم محمد الزمخشري.[1]

كتب الحديث:

- كتاب الموطأ للإمام أبي عبد الله مالك بن أنس.
- جامع البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري.
- مسند مسلم لمسلم بن الحجاج.
- سنن أبي داود لأبي داود السحستاني.[2]
- جامع الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
- جامع النسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
- التمهيد والاستذكار لأبي عمر يوسف بن عبد الله النمري.
- المنتقى للقاضي أبي الوليد سليمان بت خلف الباجي.
- المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار لأبي عبد الله محمد بن عبد الحق ابن سليمان التلمساني.[3]

كتب الفقه:

- كتاب المدونة والمختلطة لسحنون عبد السلام بن سعيد.
- التهذيب لأبي سعيد البراذعي.
- كتاب عبد الله بن الحكم.
- كتـ اب التفريـ ع لأبـ ي القاسـ م عبيـ د الله بـ ن الحسـ ين الجلابـ ي البصـ ري القرطبي.
- كتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب القرطبي.
- كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.
- كتاب التلقين للقاضي أبي محمد عبد الوهاب.
- كتاب المقدمات لأبي الوليد محمد بن أحمد بن راشد.
- التبصرة لأبي الحسن اللخمي.
- كتاب الطرطوشي.[4]

كتب اللغة العربية:

- كتاب سبويه.
- كتاب الإيضاح لأبي على الفارسي.

1- الغبرينى، المصدر السابق، ص. 26.
2- المصدر نفسه، ص. 26.
3- الغبريني، المصدر السابق، ص. 26.
4- المصدر نفسه، ص. 26-27.

- كتاب الجمل للزجاجي.
- كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.
- كتاب القانون لأبي موسى الجزولي.
- كتاب المفصل للزمخشري.
- كتاب آداب الكتاب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة.
- كتاب الحماية لأبي تمام حبيب بن أوس.
- كتاب المقامات لأبي محمد القاسم بن على الحريري.
- مقصورة ابن دريد.
- ديوان أبي الطيب المتنبي.
- ديوان أبي العلاء المعري.
- البيان والتبيين للجاحظ.
- الكامل للمبرد.[1]
- **كتب التصوف والتذكير:**
- رسالة فضل مكة لأبي سعيد الحسن البصري.
- قوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب لأبي طالب محمد بن على المكي.
- رسالة القشيري لأبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري.
- كتاب أبي الفرج الجوزي.

كتب علم أصول الدين وأصول الفقه:

- كتاب الإرشاد لأبي المعالي.
- كتاب المستصفى للإمام أبي حامد الغزالي.
- كتاب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي.
- كتاب الجامع الخيرات للإمام سفيان بن عيينة.
- كتاب المسند الكبير للإمام أحمد بن حنبل.

ويشمل المقرر الدراسي أيضا على العلوم أخرى هي الفلسفة والطب والمنطق والفلك والحساب، غير أنها تعتبر أقل شأنا من العلوم الدينية، ونستنتج ذلك من خلال كتب ابن سينا ورسائله المتعددة في مقررات التعليم وغيرها من الكتب الأخرى لعلماء الأندلس.[2]

ويبدو أن الطلبة والدارسين أصبحوا ينفرون من الكتب الضخمة والمجلدات الكبيرة الحجم، وصاروا يميلون إلى الكتب المختصرة وما ألف من شروح وهي الظاهرة التي جعلت الآبلى وابن خلدون ينتقدانها،

1- الغبريني، المصدر السابق، ص. 27.
2- المصدر نفسه، ص. 25.

ويرميانها بالعقم والسطحية والجمود ويصفانها بأنها آفة كبرى على التحصيل.[1]

أما عن طريقة التدريس في هذه الفترة، فالظاهر أنها كانت تختلف من مدرسة إلى أخرى ومن شيخ إلى أخر، باختلاف المدارس الفكرية والعلمية التي تعلم فيها علماء ذلك العصر، فأسلوب الإلقاء والشرح والتلقين كان هو السائد في المدارس المغربية، وهي طريقة تقليدية يكون فيها دور الطالب سلبيا، يعتمد فيها على الحفظ وعندما قدم شيوخ الأندلس- كما يشير الغبرينى- ادخلوا على أسلوب التدريس طريقة تعتبر حديثة في ذلك الوقت يعتمد فيها على الحوار أي المحاورة والمناقشة، والتعمق في تحليل والبحث والتعليل،[2] يشارك فيها الطالب بما يقدمه من أبحاث وآراء، حتى يتسنى له استيعاب الموضوع وإدراكه وفهمه، كما يكلف الطالب بالأبحاث وبالإنشاء وبالتحرير لتوسيع نطاق معارفه.

وكان الأساتذة يحثون الطلاب على الجد والاجتهاد من وقت صلاة الفجر إلى وقت صلاة العصر وهي المدة الزمنية اليومية المقررة للدراسة، ويستريح الطلاب يومين في الأسبوع يوم الخميس ويوم الجمعة كما كانوا يحثونهم على الصبر والعمل الجاد لفهم ما لا يسهل فهمه، بالتصفح الدقيق لأمهات الكتب والقراءة المتأنية، وإن يقتادوا بنصيحة الإمام الغزالي الذي يقول فيها: "... **فنصيحة في تخشين خير من خديعة في لين...** "[3]

ومهما يكن فإنه بالإضافة إلى هذه الكتب والمصنفات الضخمة، انتشرت ظاهرة تأليف المختصرات والشروح ونظم القصائد في علوم وفنون شتى، حتى يسهل تدريسها وتلقينها.[4] وأقبلت بعض الأسر القسنطينية على شراء الكتب واقتنائها من بلاد المشرق والمغرب ومن الأندلس.[5] وقام بعضهم بتأسيس المكتبات التي تعتبر الركائز القوية للنهضة الفكرية ونشر المعرفة بين الناس، والبحث في المسائل العلمية والفقهية المختلفة.

فتكونت بذلك المكتبات العامة في بعض المدارس والمساجد والزوايا والمكتبات الخاصة في بيوت الأمراء والعلماء بمدينة قسنطينة، لدرجة أن أصبحت خزانات بعض البيوتات في المدينة تزخر بالمجلدات وأمهات الكتب، والمصنفات العديدة، مثل أسرة ابن الفكون وابن باديس وعبد

1- سعيدوني [وآخرون]، المرجع السابق، ص. 439.
2- الغبرينى، المصدر السابق، ص. 29.
3- حاجيات [وآخرون]، المرجع السابق، ص. 179.
4- المرجع نفسه، ص. 439.
5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج.1، ص. 290.

المؤمن،[1] وحتى الأسر التي لم تكن تملك رصيدا ثقافيا، احتفلت بتكوين خزائن ضخمة لها من الكتب النفيسة النادرة ولا سيما منها الأسر الميسورة ماديا حتى تتجمع بها أمام وجهاء القوم وأعيان الناس.[2]

وقد زاد في إثراء هذه المكتبات هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب وافريقية حاملين معهم مكتباتهم ومصنفاتهم.[3]

كما عمل أهل المدينة وأمرائها على تشجيع التأليف والنسخ، حتى ظهر العديد من الخطاطين والنساخين في المدينة وكان لهؤلاء دكاكين خاصة تعرف بالوراقين، ولهم أسواق تسمى أسواق الوراقين يؤمها الناس لشراء الكتب أو الاستماع إلى كبار الأدباء والعلماء والشعراء، وهم رواد هذه الأسواق، إذ كانت منتدى فكريا للطبقة المثقفة ومكانا محببا لإقامة الندوات العلمية والأدبية في مختلف مجالات المعرفة.[4]

والوراقة مهنة سامية تحترفها نخبة من الناس ومكانا لنسخ الكتب وتصحيحها وزخرفتها وتجليدها وبيعها، بالإضافة إلى ذلك تباع فيها الورق وأدوات الكتابة المعروفة في ذلك الوقت، وإذا كان ابن خلدون قد أشار إلى تدهور هذه المهنة في بلاد المغرب في عصره، فإنها كانت لا تزال مزدهرة في بعض الحواضر المغربية الكبرى ولا سيما بعد نزوح المهاجرين الأندلسيين إليها، لأنهم كانوا أشد الناس اعتناء بالكتب.[5]

غير أن الشيء الجدير بالملاحظة هنا هو أن الخط الذي كان ينسخ به الناسخون في العهد الحفصى هو الخط الأندلسي، الذي طغى على الخطوط المغربية الأخرى ولا يغفل ذلك ابن خلدون بقوله:" ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الأندلسي...[6]

وكان الوراقون والنساخون يتمتعون بمكانة علمية مرموقة، فكان منهم العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء، كما كانت دكاكينهم ومحلاتهم مقرا مفضلا

---

1 - تعتبر أسرة ابن الفكون بمدينة قسنطينة من الأسر التي أعنيت بتكوين مكتبة خاصة احتوت على ما يزيد 4000 مجلد من أمهات الكتب. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص. 281.

2- لطف الله قاري، الوراقة والوراقون، ص ص. 24-25.

3- كان أصحاب الكتب والمدونات من أهل الأندلس يخافون على كتبهم من الضياع، ويخشون نهب الإسبان، ومصادرتها...لهذا كانوا حرصين على تهريبها إلى ديار المغرب والمشرق، كلما حسوا بالخطر عليها. ينظر : أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، المرجع السابق، ص. 287.

4- تقع سوق الوراقين لمدينة قسنطينة في الناحية الشرقية أي في الحى المعروف بالشارع في الوقت الحاضر.

5- ابن خلدون، مقدمة، ص. 757. ينظر: لطف الله قارى، المرجع السابق، ص. 24.

6- ابن خلدون، كتاب العبر، ج.6 ، المصدر السابق، ص. 751. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، المرجع السابق، ص. 292.

لاجتماع الطبقة المثقفة المشتغلة بالعلم والقلم لقراءة ما استجد في عالم الكتب والنسخ ومناقشتها.[1]

وبهذه العوامل كلها وللمناخ الثقافي الجيد ظهرت في ميدان العلم والفكر أسر وبيوتات من مدينة قسنطينة، حملت مشعل الثقافة الإسلامية بالمدينة منذ قرون خلت يعود بداية ظهورها وبروزها في منذ القرن السادس الهجري إلى نهاية العهد الحفصي.[2]

1- اشتهر في العهد العثماني أبو عبد الله بن العطار ينسخ الكتب وتجليدها في مدينة قسنطينة، كما كان يمتاز بحسن الخط وجماله. أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، المرجع السابق، ص.291.

2- محمد طمار، المرجع السابق، ص90. المهدي بوعبدلى، لقطات من تاريخ قسنطينة الثقافي والسياسي في القرن العاشر الهجري، محاضرة مطبوعة ألقاها يوم 1979/05/04 بقسنطينة، ص. 72.

لا شك أن ابن قنفد ألف كتبا كثيرة بلغ مجموعها حوالي ثلاثين مصنفا في مختلف العلوم النقلية والعقلية. وقام بشروحات واختصارات لكثير من مؤلفات من سبقوه، منها ما لم يحقق لحد الآن سوى عدد قليل لا يتعدى خُمُسَ مؤلفاته، ولم يعرف حتى مكان وجود المخطوطات الأخرى، إلا القليل منها موزعة بين خزائن الرباط، والقاهرة، والجزائر، وتونس، وحتى بريطانيا. أما الباقي فيبقى في عداد المفقود.[1]

ويبدو أن ابن قنفد قد أبدع في العلوم العقلية ولاسيما في علمي الحساب والفلك. أما العلوم الإنسانية فقد قلّد فيها السابقين، مثل بعض التقييدات والشروح والمختصرات، وكذا في التراجم. فإذا تأملنا كتابه "الفارسية" نجده قد راع فيه التأريخ الزمني لحكم السلاطين، ورتب الحوادث ترتيبا زمنيا، وهذه المنهجية من ابتكار شيخ المؤرخين المسلمين ابن جرير الطبري، وعليه يمكن تصنيف كتب ابن قنفد في مجال التأريخ ضمن كتب تاريخ السير أو حوليات السيرة.[2]

وقد استقى ابن قنفد مادته الخبرية من عدة مصادر ووثائق، اطلع عليها في خزائن وأرشيف الدولة الحفصية بتونس وقسنطينة. ومن هنا تعد كتبه مصدرا أساسيا لهذه الفترة الخاصة بالدولة الحفصية[3]. كما ربط الأحداث بالسنة التي تقع فيها، سواء كانت هذه الأحداث تتعلق ببلاد المغرب أم الأندلس أم أروبا، وكان حريصا على ذكر مراجعه وأسانيده المكتوبة والشفوية، وهو بذلك على قاعدة الكثير من المؤرخين القدماء والمعاصرين له، ممن يُكثرون من النصوص الأدبية والمحاورات.

كما تعد الأخبار والحوادث المتعلقة بالدولة الحفصية، والمجتمع المغربي في كتابيه "الفارسية" و"أنس الفقير" مصدرا أساسيا وأصيلا، خاصة الفترة التي عايش أحداثها وعاصرها.

كما اعتمد على منهج الطبري في تأريخه للأحداث، إلا أنه لم يعتمد طريقة المقابلة بين الروايات والترجيح فيما بينها.

وبالرغم من أن عصر ابن قنفد ساده بعض الانحطاط في مجال التأليف، لكثرة الإعتماد على المحسنات البديعية والسجع. وهو الأسلوب الشائع في تلك الفترة، فقد اعتمده ابن قنفد في بعض كتاباته ما عدا "الفارسية" و"أنس الفقير"، فكان أسلوبا بسيطا وسهلا، يحمل أحيانا بعض

1- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص.82.
2- ابن قنفذ، وسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام، المصدر السابق، ص. 82.
3- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 97.

المفردات القريبة من العامية[1]، وبعض المفردات التي تغلب عليها لهجة أهل قسنطينة[2].

وبعد الإشارة إلى ماتركه ابن قنفد من تجميع وتدريس في العلوم بشقيها العقلي والنقلي، كالتاريخ، والسير، والتراجم، والفقه، والفلك، التي لايزال منها ما هو مخطوط مركونا في خزائن المخطوطات داخل الجزائر وخارجها، تدل مؤلفاته على جلالة علمه، ومتانة أسلوبه، ودقة علمه في الترتيب والتحري. حيث يصل إنتاجه إلى سبعة وعشرين مؤلفا بين مفقود ومخطوط، اعتمد فيها طريقة القدامى في التدوين والتصنيف. إلى جانب العديد من الإضافات التي استقلت بها أمهات الكتب، التي واضب عليها قراءة وتدريسا، فجاءت مشتملة على فوائد جمة.

فهو بذلك كان يمتلك ذوقا سليما، وفهما مستقيما، وقدرة عجيبة في الكتابة والتوثيق. فأعماله تمثل نمطا من أنماط أسلوب تفكيره، الذي كان كثيرا ما يذهب فيه إلى أبعد من مداه، سواء كان ذلك من حيث تماسكه واتصال أطراف أفكاره فيما بينها، من حيث المحتوى والمضمون.

فابن قنفد بجهده هذا ترك لنا آثارا فكرية وعلمية بالغة الأهمية؛ إذ كانت تعبر عن خصابة تفكيره وقربه من منهج الأولين في الجمع والتدوين. فما قدمه لنا ابن قنفد كان بمثابة المكسب العظيم للعلوم الدينية وأحكامها، وللتاريخ ورجالاته، من شيوخ وفقهاء وسادة.

فهو عمل دقيق وحساس للغاية، لأنه يحتاج من صاحبه الصبر وقوة العزيمة، مع منهج صالح وعمل صادق ومادة علمية توفر له حقائق العلوم واستثمارها في الشرح والتحليل والتحقيق، حتى يُكتَب لعمله التوفيق، فينفع الدارس والمعلم والقارئ ويعمق معارفهم.

وقد أسعفه في ذلك كله مؤازرة فكره له، وساعدته عليه عبقريته وصبره على تلقي العلوم وتدريسها.

والواجب علينا اليوم نقل أعماله من المخطوط إلى المنشور، حتى تستفيد من شمولها وإحاطتها، ودقة علومها ومعلوماتها الدالة على سعة علمه، وعمق حفظه، وتمكنه من كثير من الفنون تعمقا ودراية .

وقد بسطنا القول فيما سلف خوفا من أن ينسى الجيل الجديد مآثر أسلافه، التي هي عبارة عن سيرة وتاريخ وآثار لأحد أعلام الجزائر، الذي أعاد بروعة منهجه العلمي على مدى عهود من الزمن مع زمرة من علماء

1- أبن قنفذ، أنس الفقير، المصدر السابق، ص. 24.
2- أبن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 110.

المغرب الأوسط روعة تاريخه الثقافي والفكري خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري.

وإذا تأملنا هذا الإرث الفكري من خلال المخطوطات والمطبوعات، والأخبار والروايات، نجده أضاف الشيء الكثير الجديد، في المخطوط والمنشور من خلال أعماله، وتجديده في كثير من مؤلفاته، أو رأى فيها مادة يستحق العودة من جديد للبحث فيها والعمل على إصدار ملحق أو مستدرك لها ومثل هذه الأعمال كانت شائعة في عصره. ولعل شغفه العلمي دفع به إلى العمل الذي يرى فيه إبداعا لا اتباعا حفاظا على الموروث الكبير من المنظم والمنثور وبين ما يجوز فيه السبق وبين ما هو قابل للاختصار بين الزيادة والنقصان.

ومن المعلوم أن ابن قنفد كان ذا ثقافة متنوعة وموسوعية، وهي ثمرة جد واجتهاد وتلقي العلم من كبار علماء عصره في المغربين الأوسط والأقصى اللذان كانت لهما الصدارة في تخصصاتهم، فأحرز بذلك على مصادر كثيرة في علوم مختلفة.

وبهذه الحصيلة صقِلت مواهبه، وشحَذ ذهنه، فبلغ القدرة على التأليف حد البراعة، ولم يخرج عن شروط التأليف السبعة، وهي إنما شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء ألف ناقصا فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح، أو مطول فيختصر، أو مفترق فيجمع، أو منثور فيرتب. ولذلك سارت بتصانيفه، وانتشر صيته، ووصف بحبر فاس وقسنطينة.

وقد حاولنا استقصاء قدر الإمكان مؤلفات هذا العلامة الفذ، وذلك بجردها كما أشار إليها بنفسه.

ومن الجدير بالذكر أن ابن قنفد بدأ التأليف مبكرا في رحلته الأولى في طلب العلم بالمغرب وذلك من خلال كتابين[1] ألفهما به. وبعد رجوعه من المغرب وتونس، واستقراره بقسنطينة، تفرغ للتصنيف .

ومؤلفات ابن قنفد متعددة ومتنوعة في مختلف العلوم، وهذا ما يمتاز به عن غيره من العلماء، إذ تجده يبحر في علوم شتى بجدارة، وقد ذكر مؤلفاته في آخر كتابه "الوفيات" الذي ذيّل به شرف الطالب في أسنى المطالب.

ولحصر مؤلفاته وترتيبها حسب الموضوعات، مع الإشارة إلى المطبوع والمخطوط منها، والموجود والمفقود، وضع ابن قنفذ سنة 807هـ

1- الكتابان هما: كتاب الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب، وكتاب حط النقاب عن وجوه إعمال الحساب.
- ينظر: -ابن مريم، البستان، ص. 308.
-ابن قنفذ، شرف الطالب، المصدر السابق، ص. 49.

ثَبتا بأسماء مؤلفاته التي بلغت سبعا وعشرين مؤلفا في فنون متنوعة، من فقه، وتوحيد، وطب، وفلك وغيرها. وتوفي بعد هذا التاريخ بعامين أي سنة 810هـ، ولا شك أنه لم يضيعها في غير تأليف.

وقبل التعرض لآثاره، تسجل له طرفة حول كتبه، حيث يذكر قاضي تلمسان، ويستشهد ببيتين لابن قنفذ حول إعارة الكتب ويبدو من خلالهما أن كتبه كانت أعز ما يملك لشدةكثرة تعلقه، وعنايته القصوى بها، وهو يحث المستعير على إعادتها :

باالله يامستعير الكتب دعني فإن إعارة الكتب عـار

فمحبوبي من الدنيا كتـابي وهل أبصرت محبوبا يعار

وقد وجِدَت له بعض الرسائل، ونسب إليه البعض الآخر من مؤلفات لم يذكرها هو في ثبته الذي وصف فيه أسماء كتبه، حتى سنة 807هـ. وجاء في بداية الثبت قوله:

"واعلم أن معرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال، ومعرفة طبقات الفقهاء وأزمانهم من مهمات المطالب، وكذلك معرفة ما ألف في عصر المسائل". وجملة تآليفه ذكرها في قوله:[1]

"وقد سألني رجل عما وقع من التواليف ليكتب ذلك في رحلته، فأمليت عليه من ذلك ما صادف الوقت زمانه، لحرصه على هذه المسالك ونسردها هاهنا تكملة للغرض".[2]

1- "تعريب الدلالة في شرح الرسالة في أربع أسفار"، ويعتبر في حكم المفقود.

2- ومنها "اللباب في اختصار الجلاب"، ويعتبر ضائعا.

3- "معادلة الرائض في مبادئ الفرايض"[3].

4- "شرح لرجز في المنطق" نظمه صاحبنا الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمن المراكشي الضرير[4] حفظه الله.

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، المرجع السابق، ص. 388.

2- ابن قنفذ، شرف الطالب في أسنى المطالب، المصدر السابق، ص. 49- 50.

- أنظر أيضا:

- ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص. 308.

3- هو شرح للأرجوزة التلمسانية في الفرائض، ذكره ابن مريم في البستان:" معونة الرايض في علم الفرايض"، ص. 308.

4- الضرير: هو أبو عبد الله محمد بن الشيخ بن زيد عبد الرحمان المراكشي الضرير.

- ينظر: الغبريني، عنوان الدراية، المصدر السابق، ص. 43.

من الملاحظ أن ابن قنفذ بدأ التأليف مبكرا في رحلة طلبه للعلم بالمغرب، أي بداية رحلته الأولى في الطلب.

5- ومنها تلخيص العمل في شرح الجمل في المنطق للخونجي[1].

6- أنس الفقير وعز الحقير[2] في رجال أهل التصوف كأبي مدين وأصحابه.

7- ومنها أنوار السعادة في أصول العبادة، وهو شرح لقوله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس..." الحديث، وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة.

8- هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك.

9- المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية.

10- سراج الثقات في علم الأوقات.

11- تسهيل العبارة في تعديل الإشارة اشتمل على أربعين باب وستين فصلا.

12- أنس الحبيب عند عجز الطبيب.

13- تيسير المطالب في تعديل الكواكب ولم يهتد أحمد على مثله من المتقدمين.

14- وقاية الموقت ونكاية المنكت.

15- بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية.

16- القنفذية في إبطال الدالة الفلكية.

17- حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب، وهو شرح تلخيص ابن البناء، وقد سبقت به ابن زكريا الأندلسي، وكان قد أخذ من كتاب نسخه عند جوازه إلى مدينة فاس بعد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة.

18- التخليص في شرح التلخيص.

19- الإبراهيمية في مبادئ الدولة العربية.

20- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب: قيدته في زمان قراءتي على الشيخ أبي محمد عبد الحق الهكسوري بمسجد البليدة من مدينة فاس، وكان الابتداء في أول سنة سبعين وسبعمائة.

21- علامة النجاح في مبادئ الإصلاح.

22- بغية الفرض من الحساب والفرائض.

---

[1]- يعتبر هذا التلخيص ضائعا. ينظر:
- شرف الطالب، والفارسية.

[2]- اعتنى بنشر هذا الكتاب وتصحيحه الأستاذ محمد الفاسي رأس جامعة محمد الخامس بالرباط وأدولف فور الأستاذ بكلية الآداب سابقا، وهو من منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي سنة 1965م.
- ينظر : - شرف الطالب، المصدر السابق، ص. 48.
- الفارسية، المصدر السابق، ص. 82.

23- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.
24- تحفة الوارد في اختصاص ... من قبل الوالد وهو غريب.
25- وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، وهو من أجل الموضوعات في السيرة.
26- شرف الطالب في أسنى المطالب.
27- تقييدات في مسائل مختلفات.

أما تآليفه التي لم يذكرها في ثبته والتي يعتقد أنه ألفها بعد سنة 807هـ، أي في السنتين الأخيرتين من حياته فهي:

1- تحصيل المناقب وتكميل المآرب[1].
2- شرح المنظومة الحسابية في القضايا النجومية[2] لأبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني.
3- طبقات علماء قسنطينة[3].

ومن المعروف أن ابن قنفذ كانت له مؤلفات كثيرة دون غالبيتها في آخر كتابه الوفيات الذي به ذيل اسمه شرف الطالب وبعضها مؤلفات وردت الإشارة إليها في مصادر أخرى، منها ما طبع ومنها ما هو مخطوط وموجود، ومنها ما هو في حكم المفقود، ويتوزع ما ألفه ابن قنفذ إلى أربعة أصناف وفنون، أولها ما يتصل بالتاريخ، وما تعلق به من تراجم وسير وأنساب، والثاني يهتم بالفلك والطب والحساب، والثالث ما تعلق بالحديث والفقه والمنطق، ورابعها خاص باللغة والبلاغة.

المبحث الأول: آثاره النقلية

1- <u>التاريخ والسير والتراجم</u>

1- 1- كتاب الوفيات:[4]

وهوتكملة ذيل لكتاب "شرف الطالب" جعله ثبتا استهله بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة من المائة الأولى وقيد وفاتهم، وذكر فيه عشرة من أعلام المغرب الأوسط، منهم أبو مدين شعيب، وكان آخرهم ابن محمد الضرير المراكشي البوني. وتعتبر الوفيات مصدرا؛ وفيات رجال

---

[1]- هو شرح لكتابه تيسير الطالب في تعديل الكواكب، وتوجد منه نسخة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط. ينظر: الوفيات، ص. 17.

[2]- منه ثلاث نسخ بالخزانة بالرباط، وأربعة بتونس، وواحدة بلندن بالمتحف البريطاني. ينظر: الوفيات، ص. 17.

[3]- ذكر الأستاذ محمد بن شنب في مقالة له بمجلة هريس مجلد 7، سنة 1928ص:41 أن هذا الكتاب يوجد في إحدى خزانات قسنطينة الخاصة.
ينظر: - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، المرجع السابق، ص. 83.
- الوفيات، ص. 17.

[4] - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 65.

وعلماء قسنطينة وبجاية وتلمسان والمغرب الأقصى والأدنى وإفريقيا. وقد وضع له ابن القاضي ذيلا تحت عنوان "لقط الفرائد"

وهذا الكتاب عبارة عن تاريخ صغير لوفيات الصحابة والعلماء والمحدثين والمفسرين والمؤلفين.

وقد قال العالم العلامة الحبر الفهامة أبو عبد الله سيدي محمد بن الطيب بن الإمام سيدي عبد السلام الشريف القادري،[1] رحمهم الله ورضي عنهم آمين في تأريخه "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"رأيت تأليفا أصغر حجما وأغزر علما، مرتبا على مدار السنين، بوجه لم يسبق إليه من الهجرة النبوية إلى المئة التاسعة الذي ألفه العلامة الإمام أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفد القسنطيني وذيله العلامة المؤرخ أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي وابتداؤه من أول المئة الثامنة إلى تمام المئة العاشرة كما ذيل أيضا بكتابه المسمى "بدرة الحجال" كتاب "وفيات الأعيان" للإمام شمس الدين بن خلكان من مجموع ذلك التاريخ من الهجرة النبوية إلى تمام المئة العاشرة، وقد بناه على الاختصار والتقريب، وإفادة "وفيات الأعيان" على أحسن ترتيب.

وقد أطلعني العلامة الفقيه البركة شيخنا سيدي شعيب بن أبي بكر قاضي مدينة تلمسان على وفيات ابن قنفد واستفدت منها نقولا وتحقيقات تاريخية، وهي أوراق ستة من القالب النصفي،ذكر فيها من علماء المغرب الأوسط عشرين أولهم من العشرة الثانية من المئة السادسة أبو الفضل بن النحوي الشيخ الصالح أبي الفضل البسكري في سنة 513، وفي العاشرة شيخ المشايخ أبو مدين شعيب بن الحسن، ودفن بعباد تلمسان وفي العشرة الثانية من المئة السابعة الشيخ الفقيه الوالي أبو زكرياء الزواوي توفي ببجاية سنة611، وفي العشرة الثالثة القاضي محمد بن عبد الحق التلمساني توفي سنة 625 بتلمسان، والفقيه الراوية أبو الحسن بن أبي نصر بجائي توفي سنة 652، وفي العشرة السابعة المحدث أبو الحسن علي بن علي بن ميمون بن القنفد توفي سنة 661، وفي العشرة الثامنة أبو محمد عبد الحق بن ربيع البجائي ببجاية[2]، توفي في سنة 675، وفي العشرة الأولى من المئة الثامنة الفقيه المحدث الجليل الشهير الفاضل قاضي الجماعة ببجاية أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني، والعشرة الرابعة الشيخ العالم أبو علي منصور بن أحمد ويعرف بناصر الدين المشدالي توفي في بجاية سنة 731، وخطيب

[1] - القادري، نشر المثاني، ص. 74.

[2] - ابن قنفذ، شرف الطالب، المصدر السابق، ص. 45.

- ابن طوير الجنة، تاريخ ابن طوير الجنة، تحقيق: سيد أحمد بن أحمد سالم(المغرب: مطبعة المعارف الجديدة، 1995)، ص. 13.

قصبة بجاية المتمتع بالدراية والرواية أبو عبد الله محمد بن غريون البجائي توفي في سنة 733، والفقيه الجد ووالد والد علي حسن بن القنفد توفي في سنة 733، والقاضي أبو زكرياء بن محمد بن الشيخ بن زكرياء بن يحي ين عصفور العبدري توفي سنة 734، وفي العشرة الخامسة الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن يحي الباهلي المفسر البجائي توفي سنة 744، والشيخ محمد بن علي البجائي توفي سنة 745 ببجاية، والعشرة الثامنة أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني توفي سنة761، والإمام عبد الله محمد الشريف الحسني التلمساني توفي سنة 771، والفقيه الجليل الخطيب أبو عبد الله محمد.

رتبه ابن قنفذ على القرون وعلى تواريخ وفياتهم مستهلا ذلك بوفاة سيد الخلق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم سنة 11هـ، وأنهى به على العشرة الأولى من المائة التاسعة أي سنة 807هـ باستهلال الحديث عن وفاة الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير.

وقد جعل لكتابه الوفيات ذيلا سماه "شرف الطالب في أسنى المطالب". ولذلك لم يذكره في ثبت مؤلفاته ليبقى كتابا مستقلا.

ولكون هذا الكتاب من المصادر المهمة التي يمكن الاعتماد عليها ليسرها وسهولة منهجها، يعتمد عليها المؤلفون لمعرفة تاريخ وفيات مشاهير الرجال والأعلام والفقهاء وغيرهم، وخصوصا العلماء منهم.[1]

وقد فصل كثير من المؤلفين بين كتاب الوفيات وذيله شرف الطالب معتبرين هذا الأخير مؤلفا جديدا له ويضيفونه إلى قائمة تآليفه.

ورغم أن هذه التراجم في هذا الكتاب قصيرة جدا إلا أنه ليس عيبا في ذلك، ونال بذلك شهرة كبيرة في الأوساط العلمية ونقل عنه عدد من كتاب التراجم والسير.

فقد نقل عنه مثلا: التنبكتي في نيل الابتهاج، وابن مريم التلمساني في البستان والحفناوي في تعرف الخلف، والزركلي في الأعلام وغيرهم.[2]

وقد طبع كتاب الوفيات لأول مرة بمدينة كلكنه بالهند سنة 1911م، بإشراف مولوي محمد هدايث حسين[3].

---

[1] - ابن قنفذ، الفارسية، ص. 67.

[2] - محمد بن القاضي، جدوة الاقتباس من حل من الأعلام بمدينة فاس،ج. 1 (فاس: ب.د.ط.، 1991)، ص. 79.

3- ابن قنفذ، وسيلة الإسلام، المصدر السابق، ص. 14.

- الوفيات، ص. 19.

وفي سنة 1939م قام الأستاذ هنري بيرس بنشر الوفيات، مضيفا إليها قصيدة غرامي صحيح لابن فرح الإشبيلي، وثبتا بتآليف ابن قنفذ وبعض الأبيات التي يحسن للطالب حفظها وهي من جمعه أيضا.

ورغم أن بيرس ذكر على الصفحة الأولى أنه اعتنى بجمعها وتصحيحها والتعليق عليها إلا أن هذه الطبعة خلت من أهم التصحيحات والتعليقات الضرورية.

وقد اعتمد ذويهض كما ذكر في تحقيقه للوفيات على مخطوطين حصل على إحداهما من مدينة تلمسان سنة 1963م، يرجع تاريخ نسخها إلى القرن التاسع الهجري على يد إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني. والثانية حصل عليها من مدينة قسنطينة وليس فيها تاريخ نسخها لتآكل أوراقها.

وقد قارن ذويهض بين طبعتي الهند ومصر فاتضح أنه لا يوجد اختلاف بين المخطوطتين.

2-1- مخطوط وسيلة الإسلام:

وهو كما ذكر ابن قنفذ من أجل الموضوعات في السيرة لاختصاره.[1]

هو مخطوط مكتوب على ورق عادي سميك بخط واضح، تتخلله بعض الأغلاط، عدد أوراقه 51 ورقة ونصف، طول الصفحة 15.5 سم وعرضها 8.5 سم في كل صفحة 20 سطرا.

يوجد هذا المخطوط مع كتاب آخر قبله هو مخطوط ألفية في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد جاء في أوله:

يقول راجي من غليه ... عبد الرحيم بن الحسني
المهرب المذنب
أحمد ربي بأتم الحمد ... وللصلاة والسلام وأهدي
على نبيه وأرجو الله ... في نهج من سألت شفاها
من تعلم سيرة النبي الأمجد ... ألفية حاوية للمقصد

وهذا الكتاب لا يوجد منه غير مخطوط وحيد لا ثاني له، وقد جرت عادة المحققين في المخطوطات أنهم لا يمانعون في نشر المخطوطة الفريدة النادرة.

أما هذا المخطوط الذي نحن بصدد الكلام عنه، فقد ذكره ابن قنفذ في جملة أسماء كتبه التي ألفها، والتي ذكرها في آخر كتابه الوفيات[1]، وقال عنه من أجلّ الموضوعات في السيرة لاختصاره.

---

[1] - ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. ر.

ينظر أيضا: - ابن قنفذ، وسيلة الاسلام، المصدر السابق، ص. 16.

وقد عثر الأستاذ سليمان الصيد على هذا المخطوط ونشره وعلق عليه سنة 1984م.

وهذا الكتاب الذي ألفه ابن قنفذ في السيرة النبوية هو من أنفس الكتب، حيث استطاع من خلاله توضيح معالم السيرة النبوية بأسلوب مختصر جذاب، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على قدرة ابن قنفذ التامة على التأليف والإحاطة الكاملة بهذا المعنى مع شموله على أهم محطات السيرة النبوية والتزام دقة المعلومات والإلمام بجوانب السيرة العطرة.

فقد أجاد ابن قنفذ في كتابه هذا بفضل اطلاعه الواسع وتنوع ثقافته فقد أخذ لب السيرة وجوهرها ويؤلف فيها مسلطا الضوء على جوانب عديدة كانت بحاجة إلى التبيين والإيضاح، فهو بحق ذو براعة فائقة في صياغة الحوادث التاريخية وصياغتها بأسلوب شيق له إشراق ووضوح ودقة.

وقد اعتمد في كتابه "وسيلة الإسلام" على كتب عديدة موثوقة السند، استفاد منها جميعا واقتبس ما يخدمه بأسلوب لطيف مشوق. وتعامل مع الكثير من الوقائع التاريخية بأسلوب يمتاز بالجدية في التحري، ويدل على البراعة في التأليف بأسلوب مثقف تزخر تقاييده بالفوائد واجتماع للوقائع التاريخية المهمة.

3-1- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية[2]

- ابن قنفذ مؤرخا للحضارة الحفصية ومشاركا فيها من خلال الفارسية.

يمكن أن نميز عصرين ذهبيين في العهد الحفصي، عهد المستنصر بالله(ت675)، وعهد أبي فارس عبد العزيز أو عهد زوزكما اشتهر بذبك(ت837)، فهذان العهدان هما بحق عهدان ذهبيان من حيث الإنتاج الفكري والنشاط الثقافي والحركة الأدبية والفقهية. فقد عرف أوج الإزدهار الثقافي والفكري والفقهي كلا في فترته، فلئن كان عهد المستنصر بالله عهد الشعر والأدب والرسائل النثرية والإنتاج في النحو والبلاغة والنقد،[3] فإن عهد أبي فارس هو عهد الفقه والتاريخ وظهور المدرية الفقهية التي اتسمت بإشعاع المعرفة الدينية وظهور تآليف عديدة في تفسير القرآن الكريم وكتب السنة النبوية الشريفة وبلورة أبواب الفقه المالكي وشرح أمهات الكتب الفقهية المغربية، ولئن كان العهد الأول هو عهد ابن الآبار وحازم القرطاجني وابن عصفور واللبلي وأحمد الغساني وابن عربية وأبي المطرف بن عميرة فإن عهد أبي فارس هو عهد ابن عرفة وابن قنفذ

1- ابن قنفذ، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط3، 1980.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، ص. 64.

3- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر االسابق، ص. 80.

القسنطيني والأبي والبرزلي وأبي مهدي الغبريني وأبي القاسم بن ناجي ومحمد النفراوي وابن عقاب شارح الرسالة وأحمد القلشاني شارح الرسالة أيضا وأحمد الخلوف القسنطيني وعبد الله الشبيبي القيرواني شارح الرسالة أيضا.[1]

إلا أن من أهم هؤلاء العلماء الذين ذكرت وغيرهم نجد أبا العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفد (740-810هـ/1340-1407م)، فهو يحتل المكانة المهمة بدوره العلمي وإنتاجه الفكري ووظائفه السامية وخاصة بتأريخه للحضارة الحفصية بتونس ومسقط رأسه قسنطينة، وقد كان من المقربين إلى السلطان أبي فارس عزوز الحفصي يحضر مجاله ويصفها لنا في تاريخه الذي ألفه له سنة 806 بقسنطينة وسماه باسمه: "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، ورفعه إليه مثنيا عليه فيه، مادحا سلاطين بني حفص.[2]

وكان ابن قنفد غزير الإنتاج في التراجم والحديث والفلك والفرائض، وهو ذو ثقافة مزدوجة: دينية وفقهية من جهة، وعلمية من جهة أخرى، وقد تغلب عليه الفقه والإهتمام بعلم التصوف بحكم وظائفه الدينية كإمام وخطيب ومفت، وقد ضبط ابن قنفد مؤلفاته في فصل في وفياته وعددها سبعة وعشرون، وتتوزع مؤلفاته بين التاريخ والفقه والمنطق والتصوف والنحو والأدب والعروض والسيرة النبوية العطرة والطلب وعلم الهيئة والحساب، ويغلب عليها الإيجاز والدقة والضبط.

ويعتبر كتاب "الفارسية" من أهم كتب ابن قنفد إذ هو من أثمن المصادر وأجلها عن الحياة العلمية والأدبية والفكرية في العهد الحفصي عموما وعهد أبي العباس أحمد وعهد أبي فارس بالأخص، لقد وصف ابن قنفذ هذه الحالة بدقة العالم الذي يمحص كل ما يرد عن الحياة العلمية، بإفريقية والمغرب في عهده، وأن "الفارسية" لدليل على متابعته لحياة العلماء وكل ما يتعلق بهم، إذ يتبع بدقة تواريخ الحياة والوفاة، ويعتبر "الوفيات" السجل الأدبي والثقافي الذهبي للدولة الحفصية منذ نشأتها. ولقد ساعد هذا الكتاب كثيرا في إبراز الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي(600-950 هـ/1204-1543م) لما يتميز به من معلومات فريدة عن الأدب والأدباء، إذ كان ابن قنفد يسجل باهتمام كبير ما يتصف به بعض سلاطين بني حفص

1- المصدر نفسه، ص ص. 112- 113.

2- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر االسابق، ص. 25. وقد ألف كتابه الفارسية سنة 806 للهجرة، أي قبل أربع سنوات من وفاته بطلب من السلطان الحفصي.

من ميول أدبية من جهة وما تتسم به الحياة الأدبية والفكرية عامة من نشاط وخصب وثراء في جميع أنحاء إفريقية، وكذا تاريخها السياسي الذي ركز عليه في أغلب فصول كتابه.[1]

ولقد تمكن ابن قنفد من رصد علامات الحضارة الحفصية إذ شاهدت حياته في عهد أبي فارس انطلاقة حظها وصعود نجمها بسبب موهبته في التأليف من جهة وتضلعه في العلوم النقلية والحسابية من جهة أخرى، ولم ينسى أبو فارس مكانة أسرة ابن قنفد في قسنطينة وخدمتها الطويلة والجليلة للدولة الحفصية في ميدان التدريس والخطابة والقضاء والتصوف، فقد ترجم ابن قنفد في "الوفيات" لجد والده[2] أي الحسن وكان مدرسا لعلوم الحديث بقسنطينة، أما جده هو علي بن حسن فقد كان خطيبا في قسنطينة نحوا من خمسين سنة وكان قاضيا بها، وتولى والده التدريس وألف في النوازل الفقهية، وكان جد ابن قنفد للأم عالما متصوفا فكيف أرخ ابن قنفد للحضارة الحفصية وما هي الصورة التي قدمها عنها خاصة في كتابه الفارسية.

لقد أرخ ابن قنفد للحركة الأدبية في العهد الحفصي وسجل المنشآت العلمية والثقافية فيه وسطر ميول بعض الخلفاء الحفصيين إلى اقتطاف ثمرات الأدب، فالأمير أبو زكرياء مؤسس الدولة الحفصية كان على حد عبارة ابن قنفد: "شاعرا محسنا فصيحا كاتبا صليب الرأي" و"كان معدودا من العلماء وفي الشعراء والنبلاء وله شعر مدون" وفي عهده "جمعت دولته من رؤساء العلماء وأهل الرئاسات من الموحدين وفحول الشعراء وجباة الأموال"، وكان يجالس طلبة العلم ويشاركهم أحسن مشاركة من غير مماراة"ويقول بن قنفد: "وللشعراء فيه أمداح كثيرة وله معهم أخبار عجيبة" "وكان إذا خطر على مكتب يأمر معلمه أن يطلق أولاد ذلك المكتب".[3]

ويتضمن كتاب الفارسية سجلا حافلا بأسماء الأدباء والشعراء الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء واستعرض أهم أنشطتهم الفكرية والأدبية: فأبو الحجاج البياسي أستاذ أبي زكرياء جمع له أحاديث كتاب المستصفى للغزالي واستخرجها من أمهات الكتب ونبه على الصحيح منها والسقيم، ولابن عربية في أبي زكرياء كتاب "الروضة الريا في امتداح الأمير أبي يحي". وألف له ابن الابار كتاب "إعتاب الكتاب"، وابن عصفور ألف للقائد هلال الهلالية في النحو.

---

[1] - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج.2، المرجع السابق، ص. 42. وينظر: الفارسية، ص.82.

[2] - ابن قنفذ، الفارسية، ص. 68. وينظر: - الوفيات، ص. 245.

[3] - المصدر نفسه، ص. 114.

ونلاحظ أن هذه الكتب مفقودة ما عدا كتاب "اعتاب الكتاب" مما يدل على قيمة كتاب "الفارسية" الوثائقية عن الحضارة الحفصية، ويذكر ابن قنفد مجالسي المستنصر من أعلام الفقهاء والأدباء كأبي بكر بن سيد الناس وابن الآبار وابن عصفور وأبي المطرف بن عميرة وأحمد الغساني وابن أبي الحسين والحسن بن معمر وأحمد الياني .

ومن جهة أخرى ذكر ابن قنفد معلومات مهمة عن الحضارة الحفصية مثل إنشاء القصور وتنضيد الرياض وتأسيس المنشآت[1] العمرانية كحنايا زغوان والبرك والجوامع، وهو يحمل القول عامة في وصف مظاهر الحياة بصفة موجزة ولكنها معبرة عن عهد كل خليفة من بني حفص: ففي عهد أبي إسحاق إبراهيم كانت أيام تونس- حسب عبارته-"أيام أعياد وأعياد" إذ أقبلت الدنيا وجاءت السعود ضاحكة. وأيام الأمير أبي حفص عمر كانت "أيام هناء وأمن وعدل، وكان يعظم الفقهاء والصلحاء ويبرهم ويبادر إلى حوائجهم"، أما أبو يحي زكرياء بن اللحياني فقد كان ذا مشاركة في العلم والأدب، وكان يألف أهل العلم، وكان كاتبه أبا محمد عبد الله التجاني صاحب الرحلة الشهيرة في تونس وطرابلس، ويفيدنا ابن قنفد أن لهذا السلطان في حروبه إشعارا كانت معلومة.[2]

أما أبو يحي أبو بكر، فمما يعلمنا عنه ابن قنفد أن معلمه كان قاضي قسنطينة، وعندما يزور حفيد هذا المعلم تونس يصحب معه السوط الذي كان جده يضرب به الخليفة، فإذا دخل على السلطان جعل السوط على كتفه الأيمن ظاهرا، وحين يراه السلطان يحسن إليه ويقضي حوائجه. وكان أبو يحي أبو بكر يحب قسنطينة ويؤمر أهلها بكل خير فكان يحضر منها العلماء والفقهاء. وكان يعرف أهلها بالاسم ويسأل عنهم وعن أحوالهم ويطلب من بعضهم أن ينزل عن مركوبه إذا رآه وذلك إكراما له.

وقد عين أبو يحي أبو بكر ولده أبا عبد الله محمد واليا على قسنطينة، وصفه ابن قنفد بقوله: كان "معروفا بالذكاء والفطنة والإدراك والعلم والجود والرئاسة وجازة النظم وجودة الخط وحسن المجلس الخ...".[3]

لقد ربطت ابن قنفد بتونس علاقات حميمة، فقد زارها من قبل مرات وأقام فيها سنوات عديدة من سنة 776 إلى سنة 802، ولقد تمتع بما أتاحته له العاصمة الحفصية المترفة من وسائل اللهو واللعب كما عب عن ذلك في هذه الأبيات الثلاثة من الوافر إذ يقول:

مضت سنون عامرا من ... وما أمسكت عن لعب

[1] - المصدر نفسه، ص. 127.
[2] - ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 166.
[3] - المصدر نفسه، ص. 161.

وجـ ودي ولـه و.
وقـ د أصـ بحت عنـ د حلـ ول وثامنة علـى كسل وسهـو.
إحـ ـدى
فكـ م لابـ ن الخطيـ بـ مـ ن وفضل الله يشمله بعفـو.[1]
الخطايـ ـا

وتوافق سنة 801 فترة إقامته بتونس، وكان مشاركا نشيطا في الحياة العلمية والفكرية بتونس، يحضر مجالس الخليفة، ويشرح كتب بعض علماء تونس مثل شرحه لرسالة عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وعنوان شرحه: تقريب الدلالة في شرح الرسالة، في أربعة أسفار، كما انه شرح واختصر كتبا مدرجة في برنامج التعليم بجامع الزيتونة مثل: اللباب في اختصار الجلاب، وإيضاح المعنى في بيان المباني وهو شرح رجز في المنطق، وتلخيص العمل في شرح الجمل للخونجي في المنطق، وكان ابن قنفد يحضر مجالس الخليفة أبي العباس أحمد مع أكابر العلماء، يقول: "ورتب مجلسا جليلا، واختص خواص لمجلسه يتسابقون إلى نصحه وانسه جلست مجلسه السعيد وشاهدت أمره الكريم السديد سنة 776".

كما انه كان يحضر مجالس الخليفة أبي فارس عزوز يقول: "وفي سنة 802 حضرت مجلسه-نصره الله- ف العلم بقصدبتهم السعيدة في الحضرة العلية في التفسير والحديث والفقه".[2]

والقائم حينئذ برسم العلم في مجلس الأمر قاضي الجماعة بالحضرة الشيخ الإمام الحافظ أبو مهدي عيسى بن أبي العباس أحمد الغبريني، وهو شيخ نال من المعارف ما اشتهى، وحاو من العلوم الغاية والمنتهى، وهو في درسه، وحضر جماعة من الطلبة مجلسه...ولا يختص الخليفة فيه بطنفسة ولا بغيرها، بل جلوسه على البساط الذي يجلس عليه الطلبة، وكان الخليفة يقرأ على القاضي المذكور دولته في الرسالة بعد افتراق المجلس، ورأيت في أيام حضوري بمرفع الكتب بالقبة شرحي لرسالة ابن زيد في أربعة أسفار، رفعه الخليفة من نسخه".

هكذا يعتز ابن قنفد بوجود نسخة من شرحه للرسالة في مكتبة الخليفة بالقصبة. ولم يكن ابن قنفد هو العالم الوحيد من قسنطينة الذي كان يضطلع بنشاط علمي بالحاضرة الحفصية ويجالس سلاطين بني حفص، فقد جلب بعض هؤلاء عددا كبيرا من العلماء والإطارات من مدينة صاحب

[1] - المصدر نفسه، ص. 124. وينظر: الوفيات، ص. 7.

[2] - ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 132.

"الفارسية"، يذكرهم ابن قنفذ ويذوه بهم ويعتز بوجودهم بتونس، فمن رجالات الدولة الحفصية الذين يذكرهم من قسنطينة ويحي بن وحاد الكومي كاتب العلامة ومحمد بن حجر القسنطيني كاتب العلامة في ديوان الإنشاء أيضا وكان من عدول قسنطينة يقول عنه ابن قنفذ: "وطالت كتاباته ومحاسنته بحسن الخط وجازة اللفظ إلى وفاة الخليفة".[1]

ومن العلماء الذين أمدت بهم قسنطينة تونس وساهموا في بناء حضارتها من جملة العدد الكبير من العلماء والأدباء الذين وفدوا على الحاضرة الحفصية من كثير من الأمصار من الأندلس والمغرب والمشرق لغويون ومؤرخون وشعراء، نذكر منهم القاضي أبا علي الحسن بن باديس تولى قضاء تونس من سنة 778 إلى أواخر صفر من سنة781.

وأبا القاسم الوشتاتي القسنطيني، قاضي الجماعة بتونس من سنة 834 إلى سنة 847، وكان مدرسا من أشهر علماء الزيتونة.

ومن جهة أخرى لنا شهادة ابن قنفد عن بعض علماء تونس سجلها في "الوفيات" أمثال ابن عرفة ومحمد البطرني، قال عن الأول: "وله مصنفات أرفعها المختصر الكبير في فروع المذهب، قرأت عليه بعضه وأنعم بمناولته وإجازته وذلك حال اجتهاد في العلم والقيام بالخطبة".

ثم لقيته قبل وفاته بسنة وبه ضعف وبعض نسيان وبلغت مدة إمامته بجامع الزيتونة في بلده خمسين سنة(). أما عن الثاني فيقول: "تمتعت به بتونس سنة 777 [2]. هكذا كان حال ابن قنفد بتونس: أخذ وعطاء، تعلم وإفادة، وكان مقربا من أبي العباس أحمد وأبي فاس عزوز الذي كتب له أمرا في جمادى الثانية من سنة804 بالعودة إلى القضاء بقسنطينة بعد أن عزله عن الخطة القائد نبيل. وإثر عزل هذا القائد وتعويضه بالمملوك ظافر رجع ابن قنفد هكذا إلى مسقط رأسه محملا بالذكريات عن تونس، مزودا بما رأى فيها وما سمعه في مجالسها السلطانية العلمية لكي يواصل وظيفته القضائية ويستمر في التأليف وإثراء المكتبة العربية خاصة بكتب علمية في الحساب والتصوف خاصة.

ابن قنفد مؤرخا للحروب الصليبية من خلال الفارسية:

إن الحديث عن ابي العباس أحمد بن القنفد القسنطيني ارتبط لدى الكثيرين بتاريخ الدولة الحفصية() انطلاقا من معاصرته لها وارتباطه بتاريخها، كما إعتبره البعض الآخر مؤرخا لكرمات الأولياء وخوارق

[1] - المصدر نفسه، ص. 137.

[2] - ابن قنفذ، الوفيات، ص. 89.

المتصوفة[1]، كما اعتبره محققا كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية مؤرخا إعتنى بالتاريخ الصغير للعهد الحفصي La petite histoire.[2]

وهذه الإعتبارات كلها تحصر ابن القنفد في خانة معينة، وهي وإن لم تقلل من علم الرجل وسعة اطلاعه فهي تجعل منه مؤرخا محليا لم يول عناية لما يجري حوله من أحداث.

فقد كتب ابن القنفد مثلما كتب مؤرخو العصر الوسيط غربا وشرقا لدولة أو لأسرة وسعى للإلمام بكل ما اشتركت فيه من أحداث ومن أهم الأحداث التي اصطبغت بها الفترة الوسطية هي الحروب الصليبية. وسنحاول من خلال هذه المساهمة المتواضعة التعرف على هذه الأحداث من خلال ابن القنفد ومدى مطابقتها لمختلف النصوص التي تناولت الحملة السابعة على مصر والثامنة على تونس وما تلاهما من غارات أروبية على السواحل المغربية خلال ما اصطلح على تسميته بالوسيط المتأخر.

وقد بدأت العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي تختل منذ القرن الحادي عشر لصالح أروبا الغربية وذلك نتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها العالمان.

ففي الوقت الذي بدأ فيه العالم الإسلامي يعيش حالة من الفوضى والانقسام وظهور الإمارات الصغيرة سواء في المغرب أو في المشرق أو الأندلس وفقدان الخلافة العباسية لدورها وانحصارها في جوانب دون أخرى، بدأت أروبا الغربية تعيش حركية جديدة وغير مألوفة، تتمثل أولا في تغلب السلطة الدينية على السلطة السياسية وإخضاع النخب الاجتماعية لها.

ثانيا بداية تحسن في الحياة الاقتصادية مرتبط بتنامي الحركة التجارية داخل الفضاء الأوروبي من خلال نهضة مدنية، كان سببها بروز أشكال جديدة من النشاط الاقتصادي الحرفي والتجاري، ويظهر ذلك من خلال الانفتاح على البحر المتوسط في اتجاه الإمبراطورية البيزنطية التي استردت بعضا من قوتها العسكرية خلال القرن العاشر، وبدأت تنفتح شيئا فشيئا على أوروبا الغربية ومن الامتيازات التي منحت لها من طرف البيزنطيين، فقوي نفوذها التجاري والمالي والبحري، وقد وظفت الكنيسة ذات السلطتين الروحية والسياسية هذا النمو الاقتصادي لصالح مشاريعها التوسيعية، حيث التفت مصالح الكنيسة ومصالح القوى النامية في أروبا في إطار التوسع المصبوغ بصبغة دينية أو ما يمكن أن نسميه بالمشروع الصليبي.

---

[1] - ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص. 28.

[2] - ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 87.

وقد كان المستهدف الأول لهذا المشروع بلاد العالم الإسلامي، نظرا للعداء التقليدي بين الديانتين والحضارتين، ونظرا لعلة وجود قبر المسيح ببيت المقدس ونظرا للتقدم التركي السلجوقي من الشرق، أن كل ذلك لا يكفي لتحريك أروبا بالمسيحية في اتجاه العالم الإسلامي، إذ ثمة بالإضافة إلى ذلك مصالح خفية غير معلن عنها، وهو إيحاء إلى ما قد تدره الحملات على القائمين بها من خيرات دنيوية.[1]

وقد أسهمت الجاليات التجارية في تسهيل مهمة الصليبين، وذلك بكراء السوق مقابل أموال طائلة، وشروط محجفة، مثل الحصول على نصيب من الأراضي التي يقع الإستيلاء عليها[2]. كما أن أوضاع الشرق نفسها كانت هشة على الأقل إلى حدود منتصف القرن الثاني عشر.

ففي هذه الفترة بدأ الشرق يسترد نفوذه، خاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي، والذي استرجع الكثير من الأراضي الضائعة مثل القدس سنة1187، وبالإضافة إلى الخلافات المسيحية التي استفحلت وآلت إلى مصادمة بين المسيحية الشرقية ممثلة في الإمبراطورية البيزنطية، والمسيحيين الغربيين.[3]

وقد آل هذا الصراع إلى احتلال القسطنطينية من طرف صليبيين الحملة الرابعة سنة 1204، فحدث بذلك شرخ كبير في العالم المسيحي أدى إلى انسداد الطريق البرية التقليدية عبر أروبا الشرقية وآسيا الصغرى ثم الشام، الذي كان له دور هام في شحذ الهمم، والدفع بالمصريين وغيرهم للوقوف أمام الصليبيين الوافدين، والسعي إلى تخليص الشرق من الكيانات الصليبية التي زرعت إبان الحملات الأولى[4].

أما ابن قنفذ في حديثه عن حملة لويس التاسع على تونس، يتعرض للحملة السابعة لا لتوضيحها أو إطناب في وصف أحداثها، وإنما ليعرف بلويس التاسع، وربما الإلحاح الذي نجده عند ابن القنفد وغيره أثناء حديثه عن لويس التاسع على مشاركته وأسره في مصر، لهو دليل على العداء المستفحل بين أهل المغرب والفرنج، ولكن الملفت للانتباه في كتابة ابن القنفد هو عدم التعرض لهذا الحدث رغم انه يمس الأمة الإسلامية في جانب منها.

1- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 72.

2- المصدر نفسه، ص ص. 110-111.

3 - محمد صالح منصور، أثر العامل الديني في توحيد الحركة الصليبية، جامعة قار يونس، ليبيا، ط.1، 1996، ص. 239.

4- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 114.

كما أن الحديث عن الحملة السابعة جاء ليتبع ما ورد في أغلب المصادر، إلا أنه يقدم لنا موقف السلطان الحفصي من أحداث الشرق في هذه الفترة، إذ وجه أبي زكريا الحفصي رسالة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب يعلمه فيها بقصد الحملة الفرنسية إلى مصر، وهو من الأمور الهامة كما كان السلطان مهتما بعدو جديد ظهر من الشرق وهو المغول ويظهر ذلك من خلال رسالة وردت عليه من مصر فيها إعلامه بهزيمة التتار وهي الواقعة المعروفة لمعركة عين جالوت سنة 1260 والتي انتصر فيها، ولأول مرة منذ دخول المغول ساحة التاريخ المتوسطي، الجيش الملوكي على عدو عنيد، سيساهم وجوده في تغيير المعادلات.

2- الحملة الثامنة على تونس سنة 1270:

إن توجه الصليبيين إلى تونس لم يكن كما ذكر بعض المؤرخين المعاصرين في تأويلهم للأحداث أن هذه الحملة جاءت للقضاء على خلافة جديدة هي الخلافة الحفصية، والقضاء على مدينة زاهرة كتونس وغير ذلك من الأسباب[1] التخمينية. تبدو الحملة التي وصلت إلى تونس والتي يعبر عنها ابن القنفد بالأمور العظام[2]، حملة موجهة إلى تونس لا غير وهو رأي فيه الكثير من التسرع أو من عدم الإطلاع على مختلف المصادر والنصوص وفهم حقيقة الصراع.

سبق وأن ذكرنا أن الحملة الرابعة التي توقفت في القسطنطينية قد أدت إلى امتداد الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية الأمر الذي أدى إلى انقطاع المسالك البرية والبحرية والمؤدية إلى الشرق الإسلامي عبر التراب البيزنطي مما اضطر الصليبيين إلى عبور البحر المتوسط دون إمكانية توقف أو استراحة وهو أمر ليس بالهين، كذلك صعوبة الحصول على المدد والمرونة أو طول المدة الزمنية التي يمكن أن يتحقق فيها ذلك، وقد جرب لويس التاسع نفسه هذه الوضعية أثناء الحملة السابعة.

على كل، صور ابن قنفذ أحداث الحملة الثامنة بصورة مقتضبة، ودون تسلسل، إذ يقول:"كانت في أيام المستنصر حوادث عظام، منها نزول النصارى بتونس بسبعة من الملوك وبكثرة من العدة والعدد والخيلوالأخبية...".[3]

1- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام (تونس: ب.د.ط.، 1350هـ)، ص ص. 121-122.

2- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 118.

3 - المصدر نفسه، ص. 122.

ويكفي القول بأن الصورة مضخمة، وفيها جانب التهويل والتخويف، وهذا ما يفسر ربما صمت ابن قنفذ عن كيفية تقبل الأهالي هذا الإنزال البحري؟ هل قاوموه؟ هل قبلوه؟

من خلال ابن قنفذ يبدو أ
ن الأهالي استقبلوا جنود الحملة
الثامنة بنوع من الحذر، ولكن السلطة المركزية أو السلطان الحفصي كان يفكر حسب صاحب الفارسية في نقل عاصمته على قسنطينة، "كان الملك عاملا على سكنى قسنطينة، وأراد نقل ذخائره وأهله إليها، واختزن بها أربعين ألف قفير من القمح وأمثالها من الشعير، وشرع في إصلاح أسوارها، وأمر بالحرث الكثير في جميع البلاد".[1]

إنها لدلالة واضحة على ضعف المجابهة من جانب الحفصيين، فحتى ما يتحدث عنه هنا وهناك في المصادر المتأخرة من تنظيم للمقاومة والمداد للتصدي، فهو في جانب كبير منه إسقاط وفي جانب آخر إن الاستعدادات التي كانت موجودة من الجانب الحفصي ربما كانت لتغطية انسحاب في اتجاه المناطق الداخلية، إلا أن هذا المشروع قد توقف تنفيذه بسبب قوة قاهرة، إذ توفي ملك الفرنسيين بقرطاج.[(2)]

وعلى الرغم من وفاة ملك الفرنسيين وانتشار الأوبئة في صفوف جنده، فقد أعطى السلطان الحفصي تنازلات هامة، بل مجحفة لخصومه، وكأنه كان على استعداد لذلك لدرء الخطر مهما كان الثمن، وقد كان الثمن ألف قنطار من الفضة.[(3)]

وتبدو رواية ابن القنفد خاصة فيما يتعلق بنوايا السلطان، رواية هامة، لأنها تكشف عن الموقف الداخلي للسلطان، ولكن في نفس الوقت تسمح لنا بالقول بأن التفكير في نقل عاصمة الدولة من المناطق الساحلية إلى منطقة بعيدة جدا عن البحر، لهو دليل على ضعف البحرية الحفصية وعجزها عن التصدي للغزوات الأروبية المتتالية[(4)]، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الحملة الثامنة قد ساهمت في إعطاء الاهمية للمناطق الداخلية خاصة وأن الحملات الأروبية على سواحل الدولة سوف لن تتوقف بل ستأخذ وجها عنيفا ومتوترا.

3- الحملات التي جدت بعد الحملة الثامنة:

[1] - ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 188.
2- المصدر نفسه، ص 196
3- المصدر نفسه، ص. 139.
4- ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية، ص. 66.

سوف لن نتعرض بإطناب لهذه الحملات ولكن سنشير على الأقل للحملات العسكرية التي تعرضت لها السواحل الإفريقية بعد الحملة الثامنة ففي سنة 1287 نزل النصارى بالمهدية وانصرفوا بعد 5 أيام ومات منهم 100 نفر ومات من أهالي المدينة 3 أنفار[1] 1296 وصول عدد هام من النصارى البنادقة إلى تونس إذ دخل المرسى 70 جفنا وبعد ثلاثة أيام حل بالمرسى المذكور 23 جفنا للنصارى القطلانيين والذين يبدو صورتهم صورة سيئة، إذ يقول ابن القنفد عند حديثه عن هذه الجاليات "دمرهم الله".[2]

ويبدو تعاقب الأساطيل البحرية مغيرة كانت أو متاجرة بسواحل المدن المغاربية هو نتيجة لاستداد الضغط المملوكي في الشرق ضد الجاليات الصليبية وضد الإمارات والمدن التي لا تزال بحوزتهم.

وقد أدى الضغط المملوكي في الشرق إلى عدة نتائج على مستوى بلاد المغرب إذ انعكست ردود الفعل على السواحل المغربية خاصة عندما أصبحت قطلونيا تمتد على الفضاء البحري للمتوسط الغربي في عهد الفونس (1285-1291) والذي بدا سياسة توسعية نحو الشرق على حساب أجواره من المسيحيين وهي سياسة سيواصلها خلفه في اتجاهات مختلفة وربما من أهم الملوك في السعي إلى الاستيلاء على المناطق الهامة في البحر المتوسط (المراسي، المضائق، الجزر) هو الفونس (1416-1458).

ولئن أشار ابن القنفد إلى هذه الحملات أثناء القرن الثالث عشر فهي ستستفحل في القرون اللاحقة، إذ لا تكاد تمر سنة دون تعرض مدينة أو جهة من جهات البلاد الساحلية إلى غارة أو غزوة أروبية خاصة من ناحية قطلونيا أو المملكة القطلانية، ولئن ذكر ابن القنفد حملتين 1389م و 1397م فقد وردت في نصوص الشكاوي التي تقدم بهاالحفصيون للممالك الأروبية عشرات الحملات تضررت منها خاصة السواحل الإفريقية وبدرجة أقل سواحل الناحية الغربية مثل القل وبونة(عنابة).وبجاية، وضعف القوة البرية الحفصية في الوسيط المتأخر سيكون له بالغ الأثر على جهات أخرى مثل الاندلس التي لم تستطع الصمود أمام زحف جحافل القشتاليين والأراغواتينين ولم تجد ما فيه الكفاية من العون والمناصرة من بلاد المغرب عامة.

إن الصورة التي قدمها ابن القنفد عن الغزوات المسيحية في العالم الإسلامي شرقه ومغربه لا نجد فيها عذف اللفظ وضراوة الكلمة، بل نجده

1- ابن قنفذ، الفارسية، المصدر السابق، ص. 191.
2- المصدر نفسه، ص. 194.

يبرر استنجاد السلطان الحفصي بالنصارى عشر سنوات بعد حملة لويس التاسع على تونس، لمحاربة والي قسنطينة أبو بكر بن الوزير "الذي كتب فيه أهل قسنطينة قبل ظهور نفاقه عقدا مشهودا بشهودها أنه ارتد وأكل الخنزير وأنه ظهر منه ما يدل على نفاقه من رد الأوامر السلطانية وانه وضع يده في أهل البلد بالنهب".[1]

وأخيرا يبقى ابن قنفذ على الرغم من ارتباطه بالدولة الحفصية مصدرا مهما للتأريخ لهذه الدولة، وما عرفته من أحداث داخلية وخارجية، انطلاقا من اطلاعه على وثائقها ومعايشته للبعض قوادها وسلاطينها.

4- طبقات علماء قسنطينة.[2]

ولنبوغه المبكر كان له السبق في التأليف ووضع الشروح وقد ألف كتابين أثناء طلبه للعلم وهما: تفهيم الطالب وحط النقاب.

5- المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية[3]، وشرح مختصر للرحلة العبدرية للعبدري.

2- التصوف:

كتاب أنس الفقير[4] في رجال التصوف كأبي مدين شعيب وأصحابه.

يعرف هذا الكتاب بأنس الفقير وعز الحقير إلا أن ابن قنفذ في القائمة السالفة الذكر يزيد بعد ذكره هذا العنوان قوله:" في رجال من أهل التصوف أبي مدين وأصحابه" ولا شك أن هذه العبارة قصد بها شرح موضوع الكتاب وليست من صميم الاسم والحقيقة كما قدمنا أن الكلام على أبي مدين الغوث اتخذه فقط كإطار لذكر سياحته بالمغرب وملاقاته لرجال التصوف والدليل على ذلك أنه رغم اعتماده في ترجمته وترجمة أصحابه على كتاب التشوف للتادلي ويبدو أن نقله عنه فإن المعلومات التي أثبتها عن دفين العباد أقل مما يوجد في التشوف. لذلك يبقى أن المهم في هذا الكتاب هو ما شاهده هو بنفسه واتصالاته الشخصية برجال التصوف، وذكر أخبارهم ومجاهداتهم والإشارة إلى ما تمتاز به سيرة كل واحد منهم.

1- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 196.

2- ذكر الأستاذ محمد بن شنب في مقالة له بمجلة هريس مجلد 7، سنة 1928ص:41 أن هذا الكتاب يوجد في إحدى خزانات قسنطينة الخاصة. ينظر: الوفيات، ص. 17.

3- في فهرست المخطوطات المغرب، ص: 132. المسافة السنية في الرحلة العبدرية، ويعتبر ضائعا. وله ذكر في فهرس مخطوطات المغرب. ينظر: الوفيات، ص. 14. وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثاقفي، ج. 1، المرجع السابق، ص. 66.

4 - ابن قنفذ، الوفيات، ص. 13. وينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص. 65.

ويتجلى من هذا البحث الذي قام به ابن قنفذ عن الحياة الصوفية في المغرب في القرن الثامن الهجري أن الحركة التي بدأت أيام الموحدين والتي سجلها التادلي في كتابه التشوف[1] قد انتشرت أيام المرينيين وتمكنت وهذه الحركة هي التي انقلبت أيام السعديين وبعدهم إلى حركة طرقية محرفة تعتمد على الكرامات والخوارق والخرافات وترتكز على ما ينسبونه من ذلك لمولاي عبد السلام بن مشيش جاعلين منه أحد تلامذة أبي مدين الغوث مع ابن قنفذ لم يذكره مطلقا في كتابه وقد استقصى فيه أشياخ أبي مدين وإخوانه وأصحابه على حد تعبيره.

مخطوطات أنس الفقير:[2]

قد اعتمدنا في نشرنا للأنس على خمس نسخ تصنفها في ما يلي:

النسخة الأولى: مخطوط الخزانة العامة بالرباط المسجل تحت رقم 524. وهو أقدم هذه المخطوطات وإن كان لم يذكر فيها أي تاريخ إلا أن ليفي بروفنصال في فهرسه لمخطوطات الخزانة العامة أن تاريخها يرجع للقرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وتحتوي على 21 ورقة مسطرتها 29 سطرا وتارة 31 سطرا وأحيانا 33 سطرا ومقياسها 26×20 وخطها دقيق واضح. ونشير إليها بحرفي را.

النسخة الثانية: مخطوط يحتوي على 58 ورقة مسطرة 20 سطرا ومقياسه 23×18 خط مغربي عادي. وهو غير مؤرخ. ورغم تشابهه بالمخطوط الأول فقد أفادنا في تحقيق بعض المبهمات. ونشير إليه بحرف كـ.

النسخة الثالثة: مخطوط الخزانة العامة المسجل تحت عدد 1498 (ورقمه في الفهرس الأستاذين الركراكي وعلوش ج. 2 هو 2232) ويوجد في مجموعة من الورقة 12 ثانية إلى ورقة 49 ثانية مسطرته 25 سطرا ومقياسه 23×18 بخط دقيق عادي مائل إلى اليمين وهو مؤرخ بالثالث عشر من صفر سنة 1228هـ (1860-1861مـ).

النسخة الرابعة:مخطوط خزانة القرويين، وهو غير مؤرخ ويحتوي على 24 ورقة مقياسه 26 ×20.

النسخة الخامسة: مخطوط من خزانة كتابه الخاصة وهو يحتوي على 56 ورقة مسطرته 23 سطرا وفي الورقات الأخيرة صارت تزيد إلى أن بلغت 28 سطرا. مقياسه 24 ×18 خط مغربيا عادي وهو من طائفة مخطوط القرويين. وهو غير مؤرخ.[3]

---

[1]- هذا الكتاب الأساسي لتاريخ الفكرة الصوفية في المغرب قد نشره الأستاذ فور في مجموعة معهد الأبحاث العليا المغربية بالرباط سنة 1958. ينظر، ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. 11.

[2] - ابن قنفذ، أنس الفقير، المصدر السابق، ص. 51.

[3] - ابن قنفذ، أنس الفقير، المصدر السابق، ص. 51.

كما توجد في الخزانة العامة بالرباط على أربع نسخ أخرى من جملة المخطوطات التي دخلت الخزانة بعد الاستقلال اثنتان، وليس بين كل هذه النسخ فوارق كبيرة.

وينبغي قبل الختام أن نشير إلى أسلوب ابن قنفذ في هذا الكتاب فإذا كان في الخطبة يستعمل السجع ويتأنق في كتابته فإنه عند كلامه على مشاهداته وزياراته لمختلف النواحي التي تكلم عنها فإنه يعمد أسلوب حي بسيط وإلى لغة لا تخلو أحيانا من بعض الألفاظ العامية كالمخايد للوسادات والصابة للمحصول الزراعي ونحوهما بل عندما يحكي كلام بعض الصوفية ممن التقى بهم يأتي بعبارات تكاد تكون عامية كقول مثلا: أعطني سرجك نركب بها [1]. وقد ذكر ابن أبي شنب في كلامه على كتاب الفارسية أنه يستعمل بعض العبارات عليها مسحة من لغة أهل قسنطينة،[2] والملاحظ في في أنس الفقير أن العبارات القليلة التي تنتمي إلى اللهجة العامية كتذكير بئر وتأنيث كساء وغير ذلك فإنه من قبيل اللهجة المغربية كذلك إلا ما كان من قوله ص. 98 الكاملة فإنه لفظة عامية لا تعرف بالمغرب الأقصى وقد ارتأيت في تعليق على هذه اللفظة.

أن معناها إما نوع من الطعام أو إناء وقد وقفت بعد هذا في رحلة التجاني على ما يلي: وأنشدني الحنفي نفسه يذم بلده (يعني مهدية تونس) ويصف أهلها بالبخل الأبيات المشهورة: (طويل)

إذا حل بالمهدية الضيف نازلا يروم القرى زفت إليه الكوامل

إذا حسروا عنها المناديل أنشدت وما السيف الأغمده والحمائل [3]

وعلى هذا فإن الكوامل وهي جمع كاملة تدل على نوع المائدة المسماة ميدة بفاس، وهي مقعرة مستديرة تجعل بداخلها الصحون وتغطى بما يسمى المكب أو بمديل كما في البيت الثاني ولا شك أن اشتقاقها من الكمال وهذا بعيد جدا عما ذكره "فور" من أخذها من Gamella التي هي إناء حقير من قصدير أو نحوه يجعل فيه طعام العساكر.

ويعد ابن الفقير من أصدق ما يعبر عن هذه الحركة الصوفية لأنه من أقدم ما وصلنا من الكتب المؤلفة بالمغرب في هذا الموضوع ويعتبر مع التشوف لابن الزيات التادلي وقد نشر كما تقدمت الإشارة إليه وكتاب المقصد للبادسي وقد نشرت ترجمته الفرنسية ولم يطبع النص العربي إلى

[1] - المصدر نفسه، ص. 52.

[2] - المصدر نفسه، ص ص. 114-115.

[3] - رحلة التجاني ص 270 من طبعة تونس سنة 1958/1378.

الآن من المصادر الأساسية عن تاريخ التصوف بالمغرب أيام الموحدين والمرينيين[1].

3- المنطق:

1- شرح لرجز في المنطق[2] نظمه صاحبنا الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه أبي زيد عبدذ الرحمن المراكشي الضرير.

2- ومنها تلخيص العمل في شرح الجمل في المنطق للخونجي.[3]

4- في الفقه والأصول:

1- تعريب الدلالة في شرح الرسالة: وهو شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في أربعة أسفار.

2- اللباب في اختصار الجلاب.[4]

3- معونة الرايض في علم الفرائض[5]: وهو شرح على الأرجوزة التلمسانية في الفرائض لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري المتوفى سنة 690 هـ[6].

4- بغية الفارض من حساب الفرائض[7]: وهو مفقود أيضا.

5- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب: علق عليه ابن قنفذ قائلا: "قيدته في زمان قراءتي على الشيخ أبي محمد عبد الحق المسكوري بمسجد البليدة من ميدنة فاس، وكان الابتداء في أول سنة سبعة وسبعمائة".

6- تعريب الدلالة في شرح الرسالة: في أربع أسفار، ويعتبر في حكم المفقود.

7- ومنها اللباب في اختصار الجلاب: ويعتبر ضائعا.

---

[1]- يتعين التنبيه إلى أن أحد مواطني ابن قنفذ من أهل قسنطينة من رجال القرن الحادي عشر يعرف كذلك بابن قنفذ وله رحلة تسمى بادريسية الامصار والقرى وبلاد العرب الفها كذلك عن سياحته بالمغرب لزيارة الأولياء والصالحين توجد منها مخطوطة بالرباط 9/1192 وأخرى بالقاهرة ولعله أحد حفدة صاحب أنس الفقير. ينظر: شرف الطالب، ص. 43.

[2] - ذكر في فهرس مخطوطات الرباط، ليفي بروفنسال، باريس، 1921، ص. 133. ويعتبر ضائعا. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص.13.

[3]- يعتبر هذا التلخيص ضائعا. ينظر: شرف الطالب، ص. 42. والوفيات، ص. 13.

[4] - وهو مفقود، ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 13.

[5]- شرح للأرجوزة التلمسانية في الفرائض. ذكره ابن مريم في البستان:" معونة الرايض في علم الفرايض" وقد ذكر الأستاذ محمد بن أبي شنب في مقالة له بمجلة ... أن هذا المؤلف يمكن أن يكون موجودا بإحدى الخزانات الخاصة بالجزائر. ينظر أيضا: الوفيات، ص. 13.

[6]- إبن فرحون، الديباج المذهب، ص ص: 90-91.

[7]-ويعتبر ضائعا. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 14.

8- أنوار السعادة في أصول العبادة[1] وهو شرح لقوله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس..." الحديث، وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة.

9- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب[2]: قيدته في زمان قراءتي على الشيخ أبي محمد عبد الحق الهكسوري بمسجد البليدة من مدينة فاس، وكان الابتداء في أول سنة سبعين وسبعمائة.

10- تحفة الوارد في بيان الشرف من جهة الوالد[3]، وهو غريب كما كما وصفه ابن قنفذ.

وقد قسم تحفته إلى ثلاثة أبواب، وكل باب يشتمل على عدة فصول، مواد الباب الأول خصصت لذكر أهل البيت، بيت النبوة وعنصرها الشريف، وهو المعبر عنه بأهل البيت الخاص، فيذكر حديث أهل الكساء وهم الحسن والحسين وفاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب، ثم ضم إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس.

ويريد من خلال مواد هذا الباب أن يجعل الشرف في آل البيت من أبناء فاطمة الحسن والحسين، أما من هو شريف الأم فلا يسمى بشريف، لأن النسب من جهة الأم يقف عند فاطمة الزهراء وسيظل الأمر هكذا إلى أن يستحدث الشرف من ناحية الأم في زمن ابن قنفد.

ويستند ابن القنفد في موقفه هذا أي رفضه للشرف من ناحية الأم على قول الفقهاء في جميع الأمصار وعلى مر العصور، في كل من الحجاز(مكة والمدينة) بغداد، خرسان، مصر، الشام، إفريقية والأندلس دون المغربين الأوسط والأقصى لأن علماءهما وقفوا ضد الموقف الرافض لإثبات الشرف من ناحية الأم، ويعطي ابن القنفد أسماء فقهاء تونس الذين قبحوا الشرف من جهة الأم الذين استند ابن القنفد في موقفه على حكمهم هذا وهما قاضي الجماعة بتونس أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعي التونسي (ت 733) [4]. وسوف يكون رد علماء المغرب الأوسط أي علماء تلمسان هو الرفض لحكمه هذا، أما الفقيه الثاني فهو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري(ت 756هـ).[5]

1- يعتبر في حكم المفقود. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 14.

2- وهو مفقود. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 15.

3- يوجد منه مخطوطة بالقاهرة وأخرى بتونس. ينظر: ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 44. وينظر: الوفيات، ص. 16. وينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، المرجع السابق، ص. 66.

4- هو من الذين استقروا بالمغرب الأوسط، وهو من الأشراف الحسين

5- هو أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام الهواري، تتفقي في 756، وهو من شيوخ ابن خلدون. ينظر:
- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص. 11.

أما الباب الثاني فلقد انطلق فيه من الواقع الذي جعله يرفض الشرف من الأم، فيذكر فقيهين من فقهاء بجاية ثبتا الشرف من قبل الأم، لأن أحدهما كان أخوه أمه شريفة فتلقب بالشريف. وهذه الحادثة التي عايشها ابن القنفد في سنة 776هـ وأدرك هذا الفقيه الذي ثبت الشرف من قبل الأم، من هذا الواقع العياني ينطلق ابن القنفد إلى تحديد مصطلح شريف فيقول أنه يطلق على سيدي القوم وكبيرهم كما يطلق على العامل والفقيه ومن له سلف صالح.

والمعنى الاصطلاحي للفظ شريف فإنه يعني من ينسب إلى ذرية الحسن والحسين أي النسب من جهة الأب الذي أخذ صفة الشرف من الأم، أما غير ذلك فإنه يضيف إلى لقب شريف النسبة الأسرية، لكي يفرق بين الشريفين مثل الشريف العلوي ويقصد ابنا علي من غير فاطمة الزهراء، والشريف العباسي، والشريف العمري، والذي ليست أمه شريفة فلا يسقط عنه لقب شريف عكس من تكون أمه شريفة وأبوه شريف فإنه لا يتسمى بهذا الاسم أي لا رفعة في نسبه خصوصا إذا كان قريب العهد بالإسلام.

ويعطي أمثلة على ذلك من العهد العباسي، فيذكر أن الخليفة العباسي المهدي تزوج بإحدى حفيدات الإمام زيد بن علي وولد له منها أولاد لكنهم لم يدعوا النسب الشريف، هكذا يبن ابن قنفذ موقفه هذا على الحكم الفقهي في الإرث بجعل العصوبة شرطا أساسيا من شروط النسب. وهو الموقف الذي رفضه فقهاء تلمسان كما سلف القول لأن القرابة لا تعني الإرث.

أما الباب الثالث والأخير فلقد ذكر فيه منازل الأشراف في معظم الأمصار الإسلامية كما عدد بيوتهم، ففي العراق يقول أن بيوتاتهم كثيرة كذلك الحجاز. أما مصر والشام فلقد استوطنتها بيوتات كثيرة كذلك لقربها من موطنهم الأصلي الحجاز وكذلك العراق الأرض التي ضمتهم بعد أن اتخذ الإمام علي الكوفة عاصمة له، هذا إلى جانب كون مصر دار خلافة لآل البيت الفاطمي بعد الرحيل من المغرب، فطبيعي أن تظم أعداد كبيرة منهم.

وفي بلاد المغرب يذكر أن لهم بتونس بيتة واحدة، وأخرى بقسنطينة، واثنتان بالقرب من بجاية وأكثر هؤلاء حسنيون، أي من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب. وفي الأندلس استقرت عدة بيتات في كثير من مدنها مثل إشبيلية وقرطبة وجيان.بل يذكر حتى أسماء هذه البيتات بينما في بلاد المغرب يكتفي بتعدادها فقط.

أما المغرب الأقصى وفي مدينة فاس يذكر أن بها ثلاث بيتات، وبيتة بتادلا، وأخرى بأقصى المغرب الأقصى دون تحديد المدينة، أما عن تاريخ

الاستقرار فيحدده بصفة عامة في أواخر المئة الثانية من الهجري/الثامن ميلادي. وهي الفترة التي عرفت هجرة كثير من أهل البيت من الفرع الحسني إلى بلاد المغرب [1].

ويختم هذا الباب بتحديد تاريخ ظهور فئة الأشراف فيقول أنه يعود إلى عهد الخليفة العباسي المأمون 198-3-201هـ[2] الذي أمر بإحصاء آل أبي طالب لكي يقسم عليهم العطاء فكان عددهم أربعة وعشرين ألف شريف، كما أمر بإحصاء بني العباس رجالا ونساء فكان عدد ما أحصي ثلاث مئة وثلاثين ألف عباسي. أما علامات النسب الشريف التي يميز الشخص فهي عنده معرفة النسب أي الشهير فيكون معروفا لدى العام والخاص، كما أن هذه المعرفة تكون بظهور علامات في البدن تورث عن الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الجمال، أما الصفات الأخلاقية فهي العفاف السخاء الجود الشجاعة الأخلاق الحسنة.

ويأتي في الأخير على ذكر كثرة انتحال الشرف وادعائه وهو ما دعاه إلى تأليف كتابه هذا وذلك في القرن السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر الرابع عشر الميلاديين. وأوجه هذا الانتحال هي العشرة والصحبة والموالات والمصاهرة. كما يذكرأن هذا الإدعاء يكون في بعض الأحيان بالشدة المغالبة أو القوة أو التعصب أو باعتراف من اشتهر بهذا اللقب فيدخل معه من شاء في النسب بدعوة القرابة فيأخذ نسخة من نسبه، وغالبا ما يكون هذا الإدعاء أو الانتحال في غير بلد المدعي الأصلي وبالتمسك بالإنتماء إلى فئة الأشراف من جهة الأم.

والذي زاد من انتشار هذه الظاهرة حسب ما جاء في التحفة، هو تساهل القضاة في إثبات النسب مقابل مبلغ مالي.

يذكر محقق كتاب أنساب الأشراف للبلاذري د.محمد حميد الله حـ20/1 أن لفظ شريف ظهر نتيجة الضعف الذي انتاب الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري وأول من سمي بالشريف المرتضى علي بن الحسن(ت436) وعلي الرضى(ت406). وقبل ذلك كان يطلق لفظ العلويين وعلى نسل أبيه الطالبيين. أنظر كذلك حول هذا الموضوع عبد اللطيف أكنوش: تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب/102-03.

غير أن مصطلح الأشراف استخدم في العهد الأموي فيذكر البلاذري: أنساب الأشراف حـ436/1 أن زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم زينب

1- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ص. 32.
2- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج. 3، ص. 183.

بنت جحش أوصت أن تحمل بعد وفاتها على السرير الذي كان حمل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فحملت عليه وحمل عليه أبو بكر رضي الله عنه وكان الناس يحملون عليه فلما كان مروان منع أن يحمل عليه إلا الرجل الشريف.

ويعطي أمثلة بالذين ادعوا النسب الشريف بالقوة فيذكر أن أحد أشراف فاس كان على سفر فقتله أحد صحبه وأخذ عقد نسبه وتسمى باسمه. أما الذين ادعوا النسب في غير موطنهم الأصلي فيذكر أحد المغاربة من خولان بالقرب من فاس خرج حاجا فعاد شريفا، وآخر أقام بمكة مدة فعاد إلى المغرب شريفا كذلك، ويذكر كذلك مملوكا لبعض المصامدة غاب مدة طويلة في المشرق فرجع شريفا، كما أن من المشارقة من كان يأتي إلى المغرب لانتحال لقب شريف، كما تحدث عن يهودي في بجاية حديث العهد بالإسلام تزوج امرأة تزعم أنها شريفة فادعى أبناؤه الشرف. من هنا يرى ابن القنفد أن المدعي للنسب الشريف مرتكب الحرام، فلابد من زجره ونهييه، ويستند في ذلك على أحاديث من السنة النبوية.

إن الدارس لتحفة ابن قنفذ يكتشف أن الذي دفعه إلى اتخاذ مثل هذا الموقف، أي رفض الشرف من قبل الأم هو كثرة المدعين الذين يستندون في نسبهم إلى الأم، وهي ظاهرة اجتماعية برزت ابتداء من القرن السابع الهجري بعد ضعف السلطة المركزية أي الخلافة الموحدية. فالمكانة الاجتماعية المتقدمة والثروة والتبجيل والتقدير من طرف الحكام هو الذي جعل الكثير من الناس يطمعون في ذلك عن طريق انتحال هذا اللقب[1].

ومما يؤكد الأخبار التي أوردها ابن قنفد عن انتحال اللقب الشريف أخبارا أخرى وردت عند غيره ممن عاصره من المؤرخين والرحالة، فعندما زار الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الملطي(ت 920هـ) إفريقية شاهد هذه الظاهرة، فيذكر أنه في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان(839-894هـ) وفد على تونس مغامر بغدادي من أسافل الناس يدعى جليل مجوسي كان أبوه يعمل غسالا للأموات، فلما ضاق به الحال ترك بغداد متنقلا في البلاد إلى أن استقر به المقام في بلاد المغرب فادعى النسب الشريف وأثري بسبب ذلك وجمع الأموال الكثيرة وأصبح من المقربين من السلطان الحفصي[2] عندما زار الرحالة المغربي ابن بطوطة بغداد في القرن الثامن الهجري تحدث عن مكانة نقيب الأشراف الذي كان مقلدا من طرف

1- عبد الباسط بن خالد المالطي، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص. 25.
2- ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، ص. 178.

حاكم بغداد وكان له ترتيب الأمراء في سفره فيركب بالأعلام والطبول، كما يضرب الطبل عند بابه صباحا ومساء.

كما أن مغامرا عراقيا آخر قاهري المنزل لما علم بأمر جليل ترك القاهرة وجاء إلى بلاد المغرب مدعيا الجهاد، فالتقى بجليل وكان كل منهما يعلم حقيقة الآخر فاتفقا على إخفائها حتى لا يكشف السلطان أمرهما، ورافقه جليل إلى السلطان وشهد بصحة نسبه الشريف مقابل مبلغ مالي قدره ثلاثة مئة دينار، غير أن المغامر البغدادي الأصل القاهري المنزل يدعى بيوسف أو القطب العراقي كشف أمر جليل إلى السلطان وأخبره بأنه مجوسي[1] هذه الحادثة دفعت بالسلطان الحفصي وهو أبي عمرو عثمان إلى إجراء تحقيق شامل في أنساب الأشراف المقيمين في حظرته فاكتشف في يوم واحد أربعين شخصا من المدعين لهذا النسب[2].

كما طالب السلطان كذلك جليل برد الأموال التي كانت تدفع له كأعطيات من بيت المال ولمدة عشر سنوات، أما القطب البغدادي فلقد طلب منه أن يقدم له ما يثبت صحة نسبه الشريف، فبعث إلى القاهرة بابنه فعاد الولد بوثيقة تثبت صحة النسب وشهد عليها القضاة القاهرة بعضهم من أصل عراقي، وكانت شهادة هؤلاء مقابل أموال كثيرة دفعها لهم، ولقد قبل السلطان الحفصي هذه الوثيقة وخصص له راتبا ورزقا.[3]

إن المكانة الرفيعة والمعاملة التي خص بها السلاطين الحفصيين الأشراف هي التي جعلت الطامعين والمغامرين يدعون هذا النسب، فتزايد عددهم باستمرار ففي عهد السلطان أبي يحي أبي بكر بن أبي زكريا بن إسحاق(718-747هـ) رتب الأشراف في ديوان خاص بعد أن كانوا مرتبين ضمن فئة الموحدين وكان عطاؤهم محدودا، فعندما خصهم بهذا الديوان أكثر لهم العطاء وملكهم الأراضي فتحسنت وضعيتهم الاجتماعية فأصبحوا من أثرياء المجتمع[4].

وفي عهد السلطان أبي عمرو عثمان الذي وفد عليه المغامرين البغداديين(839-894هـ) أكرم آل البيت النبوي بالعطاء سواء المقيم منهم في تونس أو الوافدين عليه من جميع الأمصار مما شجع على استقرارهم

1- ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، ص ص. 88-89.
2- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله(بيروت، دار الغرب الإسلامي)، ص. 168.
3- ابن خلدون، المقدمة، ص. 118.
4- المصدر نفسه، ص. 119.

بحضرته فكثر عددهم[1] بانتحال الكثير منهم هذا اللقب دون أن يكونوا أشراف حقيقيين.

واستمرت فئة الأشراف على مكانتها هذه فنجدها في بداية العصر العثماني تحظى بنفس التقدير والتبجيل والتكريم في كل من تونس وقسنطينة[2]، إن ظاهرة النسب الشريف في بلاد المغرب لن تطرح من نفس الزاوية في كل الأقاليم وفي عهد الدول التي حكمت بعد سقوط الخلافة الموحدية.

ففي المغرب الأقصى كثرة المدعين له تطرح من زاوية إقامتهم المبكرة في مدنه ونواحيه قبل قيام الدولة الإدريسية سنة 172هـ، وسيزداد عددهم في عهدها، فامتداد القضية في زمن عسر من عملية التحقيق في صحة النسب.

أما في المغربين الأوسط والأدنى فإن الدول التي عاصرت الدولة الإدريسية وهي الدول الرستمية في تاهرت، والأغلبية في القيروان كلتاهما تعادي الأدارسة سياسيا، وهذا العداء السياسي منع لجوء الأشراف من آل البيت إلى أرض كل منهما، بينما تلمسان في أقصى المغرب الأوسط ظلت تستقبل أبناء البيت من الفرع الحسني، فاستقروا في تنس وسوق حمزة، لهذا ستعارض كل من فاس وتلمسان فتوى كل من علماء تونس وقسنطينة في رفض إثبات الشرف من ناحية الأم.

وعندما قامت الخلافة الفاطمية في إيكجان بالمغرب الأوسط ثم القيروان فإن رحيل المعتز إلى القاهرة سنة 362هـ لم يبق على شيء لهذا البيت في بلاد المغرب بل حتى رفات آبائه وأجداده نقلها معه إلى القاهرة.

كما أن هذا الفرع الحسني الذي أقام خلافة له في المغرب لم يسمح للفرع الحسني بأخذ مكانته طيلة حكمه، مما دفع بالحسنيين إلى التفرق في مناطق كثيرة والإختفاء كذلك، هذا إلى جانب ظهور الأشراف في بلاد المغرب كفئة اجتماعية دون أن يكون لها أبعاد سياسية ابتداء من القرن السابع الهجري، لهذا ابن خلدون عندما عالج القضية تناولها من الناحية الاجتماعية الصرفة، فصراحة النسب عنده لا يوجد إلا عند أهل القفار لأن النزوح إلى هذه المناطق عسير مما يمنع الأنساب من الاختلاط.

والقبائل ذات النسب الصريح هي قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة.[3]

1- الونشريسي، المعيار، ج. 12، ص. 193.
2- المصدر نفسه، ص. 208.
3- ابن خلدون، المقدمة، ص. 120.

إن صراحة النسب هذه عند ابن خلدون لا تستمر في أكثر من أربعة أجيال إلا في القليل النادر فيمكنها أن تتلاشى قبل هذا الجيل أو تستمر حتى الجيل الخامس أو السادس فينتفي بعد ذلك الشرف بالخلال ويبقى بالنسب فقط، بل حتى النسب يزول بالاختلاط فيصبح الشخص ينسب إلى مدينته أو قريته ولا إلى قبيلته أو أصله، مستمدا على قول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا"[1]، هكذا ترك القفار والاستقرار في الأرياف والمدن التي يزدحم فيها الناس يؤدي إلى الاختلاط والاختلاط ينفي صراحة النسب.

أما موقف فقهاء تلمسان وبجاية وفاس فإنهم أثبتوا الشرف من قبل الأم معارضين بذلك فقهاء تونس وقسنطينة، لهذا ابن القنفد عندما يتحدث عن إجماع فقهاء الأمصار لا يذكر العواصم الثلاث لأن فقهاءهم أثبتوا الشرف من ناحية الأم مثل الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق[2] والفقيه أبو عبد الله الشريف التلمساني[3] والفقيه سعيد بن محمد العقباني.

كما أن فقهاء بجاية عارضوا فتوى قاضي الجماعة بتونس أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعي، وكان الذي رد عليه هو كبير فقهاء بجاية الشيخ أبو علي ناصر الدين المشدالي، وما استند عليه هؤلاء العلماء في فتواهم أن أصل الشرف هو من كان ينسب إلى الحسن والحسين أي الانتماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة، فالأصل في القرابة إذا هو ابن البنت أي التواصل بالأم وعليه من أمه شريفة فهو شريف النسب شرعا وعرفا معارضين رأي من أفتى بعدم ثبوت الشرف مستندا في ذلك على القاعدة الفقهية في الميراث، فليس كل من لا يرث ليس من القرابة مثل العمة.

ويبقى في الأخير القول أنه على الرغم من أن التحفة لا تحتوي على أخبار تاريخية كثيرة، إلا أن أهميتها كبيرة فيكفي أنها عالجت ظاهرة مهمة عرفها المجتمع المغربي بعد سقوط الخلافة الموحدية سنة 668هـ، ومحققا كتاب الفارسية عندما عرضا لمؤلفات ابن القنفد في مقدمتهما تحدث عن تحفة الوارد مبينا أنها ألفت عن أشراف قسنطينة، لكنها غير ذلك حسب ما عرض لها في الصفحات الماضية فكل ما ذكره ابن القنفد عن قسنطينة أن السؤال المتعلق بثبوت الشرف من الأم ورد على قسنطينة وهو قاض لها.

1- الونشريسي، المعيار، ج. 12، ص. 221.
2- المازوني، الدرر المكنونة، ج.3، ص. 162.
3- الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ص. 199.

وعند عرضه لبيوتات الأشراف ذكر أن بقسنطينة بيت واحد، وعليه فالتحفة ألفت بدافع معالجة ظاهرة عامة في بلاد المغرب وهي ظاهرة الشرف.

3- الحديث وعلومه:

1- أنوار السعادة في أصول العبادة: قال عنه مؤلفه: وهو شرح لقوله عليه الصلاة والسلام " بني الإسلام على خمس.." الحديث،[1] وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة.

2- شرف الطالب في أسمى المطالب[2]:

منهجية في كتابه شرف الطالب:

هذا الكتاب كما صرح المؤلف نفسه مختصر، اعتبره صاحبه مدخلا لكتب علوم الحديث، ليقرب على المبتدئ الوصول إلى فهمها، وقد وضعه كما يفهم من عبارته للمبتدئين، ولذلك لم نلحظ عليه تجديدا في الأمر، بل نراه يكتفي بالآراء الواردة عند ابن الصلاح والحاكم والقاضي عياض، وبعض النقول الأخرى عن غيرهم.

ومع هذا، فإن المؤلف، وهو ينقل عن غيره من المتقدمين مع اختصاره كان يختار الآراء الراجحة غالبا، مما يدل على فهمه واستيعابه لمسائل هذا العلم، وهو وإن لم يأت بجديد كما أسلفنا، إلا أنه أحسن في شرح هذه القصيدة، وعرض قواعد مصطلح الحديث بصورة منظمة.

وقد انتهج منهجا، سار عليه إلى تمام شرحه للقصيدة، حيث يبدأ أولا بالجانب اللغوي في البيت، متوخيا الاختصار في ذلك، حتى أنه أحيانا كثيرة بل في الغالب يشرح اللفظ بلفظ واحد، مرادف له، وأحيانا بضبط الكلمة بالحروف إذا اقتضى الأمر كما هي عادة المؤلفين الأقدمين، لأن الضبط بالحركات والنقط عرضة للتصحيف والتحريف.

ثم يعرج على جانب الإعراب، فيبين موقع الجمل من الإعراب، ويعرب البيت إعرابا كاملا مختصرا يدل على تمكنه من ناصية اللغة، وأحيانا يذكر خلاف العلماء مسألة نحوية، كذكره الخلاف بين ابن مالك وابن

1- اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، باب الإيمان، ج.1، ص. 8. صحيح مسلم، الإيمان باب أركان الإسلام، ج.1، ص. 45. ويعتبر ضائعا. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 14.

2- هو شرح على المنظومة المسماة القصيدة الغزالية الغرامية في ألقاب الحديث لأبي العباس بن فرج الإشبيلي، وهي في عشرين بيتا. لم يشرح منها ابن قنفذ إلا سبع عشرة بيتا، وتوجد شرف الطالب عدة مخطوطات منها سبعة بالرباط، وأربعة بتونس، وثلاثة بمصر، واثنتان بباريس. ينظر: اسماعيل البخاري، صحيح مسلم، ج. 1، المصدر السابق.

عصفور في بقاء عمل ما، إذا تقدم خبرها على اسمها والخبر ظرف أو مجرور ثم أعرب الكلام على مقتضى إعمالها وإهمالها.

وبالنسبة للجانب البلاغي، لم أجد إلا إشارة واحدة إلى اللف والنشر المرتبين عند قول الناظم: وحزني ودمعي مرسل ومسلسل.[1]

وعندما يفرغ من كل هذا، يحصر أنواع الحديث التي يحتوي عليها البيت، ثم يشرع في شرحها واحدا واحد، فيذكر التعريف الاصطلاحي الذي يرتضيه لهذا النوع، ثم يعقب بذكر تعاريف أخرى إن وجدت، ثم يذكر مثالا أو أكثر للتوضيح، ويورد الخلاف الوارد في تعريف هذا النوع، أو فيما تعلق به، ويبين الراجح من ذلك، كل هذا باختصار، حتى لا يخرج عما التزم به.

ولهذا، أستطيع أن أقول أن هذا الشرح يصلح أن يكون مقررا دراسيا على المبتدئين من طلبة العلم، لأنه يختصر الآراء الراجحة في المسألة، وفي الوقت نفسه لا يستطرد في استعراض الأدلة وخلاف العلماء، وغير ذلك، فتلك مرحلة متقدمة في هذا العلم.

وقد زاد من فائدة هذا الشرح تلك المباحث التي أضافها المؤلف عقب انتهائه من شرح هذه القصيدة، حيث تكلم عن كتابه الحديث،[2] وذكر الخلاف في ذلك، ثم فصل القول في آداب كتابة الحديث، وآداب العالم والمتعلم، ثم تكلم عن الناسخ والمنسوخ، وعن الصحابة، ورواية الحديث بالمعنى، وعن التابعين وذكر طبقاته ومن ثم تكلم عن معرفة الأكابر من الرواة، ومعرفة الإخوة من الرواة، ورواية الآباء عن الأبناء وعكسه، ومعرفة السابق واللاحق، ثم ذكر من لم يرو عنه إلا راو واحد، ومن لم يرو شيئا، ومعرفة من له أسماء مختلفة، أو نعوت مختلفة، ومعرفة من لم يشاركه أحد في اسمه، أو في كنيته، ومعرفة الكنى والأسماء، ومعرفة الكلام الخاص بكل إمام [3] ...إلخ.

ونشير إلى أن بعض هذه المباحث ذكرها المؤلف مجرد ذكر، ولم يشرحها وكأنه رأى الاقتصار على التنبيه على أهميتها، ووجوب تعليمها، بالرجوع إلى مصنفات علوم الحديث التي نقل عنها، أو عن غيرها.[4]

إلا أنه مما يؤاخذ عليه المؤلف إيراده الأحاديث الضعيفة والموضوعية، حتى أن بعضها من الضعف بحيث لا يخفى على من له أدنى معرفة بهذا العلم، وهذا مما يعكر صفو كتابه، ويدعونا إلى بيان قيمة

---

[1] - ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 134.
[2] - ابن قنفذ، شرف الطالب، المصدر السابق، ص. 265.
[3] - المصدر نفسه، ص. 283.
[4] - المصدر نفسه، ص. 296.

الأحاديث التي أوردها، وهو ما فعلته ولله الحمد والمنة مستعينا في ذلك بكتب الأحاديث الضعيفة والموضوعية.

وهذه المسألة أعني التساهل في رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعية كثيرة في بلاد المغرب، مما يدل على قلة اهتمامهم بعلم الحديث رواية، ويظهر هذا كثيرا في جملة مخطوطات في تراجم العلماء المغاربة، ولعله لم يشذ منهم في ذلك إلا قليل، فقد كان اهتمام المغاربة ينصب على الفقه أكثر من الحديث، وإذا اهتموا به، فهو اهتمام بجانب الدراية دون الرواية.

أما جانب التصحيح والتضعيف،[1] والبحث في عدالة الرجال وضبطهم فهو عندهم قليل، حتى لقد رأيت أحدهم يفتخر بأن له إسنادا متصلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن عند النظر في إسناده تبين أنه حديث موضوع.

وفي جنوب الجزائر، مما زال الناس إلى اليوم يختمون صحيح البخاري كل سنة، ويقيمون ليلة ختمه ساهرا، ولكنها قراءة للتبرك لا غير.

وهذا الفصام النكد بين الفقه والحديث ما زلنا نرى آثاره عندنا إلى اليوم، حيث الجمود على الفقه المذهبي، وعدم البحث عن الدليل، حتى صارت أقوال العلماء هي الأدلة الشرعية، فيكفي أن يقول المفتي عندنا: قال أشهب، أو قال أصبغ، أو غيرهما، حتى يؤخذ قوله ويعمل به.

وما يلاحظ على المؤلف أيضا، تصرفه في الكلام الذي ينقله من مصنفات العلماء المتقدمين، دون الإخلال بمقصود المؤلف، أو انتقاء المقصود أصلا.

- عنوان الكتاب ونسبته إلى المؤلف:

في كل النسخ التي عثر عليها كان اسم الكتاب واضحا: شرف الطالب في أنسى المطالب، إلا ما كان من الزركلي في أعلامه، فقد سماه: (شرح الطالب في أسنى المطالب).[2]

والظاهر أن هذا من قبيل التصحيف السمعي أو البصري، والله أعلم.

أما عن نسبة الكتاب للمؤلف، فهذا أمر لا شك فيه، إذا صرح هو بذلك أثناء كلامه عن مؤلفاته، وعده في جملتها، وأيضا، فقد أثبت النساخ اسم المؤلف كاملا في بداية الكتاب، وكل من ترجم له عد هذا الكتاب في جملة مؤلفاته. والله أعلم.

- محتوى الكتاب:

---

[1] - ابن قنفذ، شرف الطالب، المصدر السابق، ص. 298.

[2]- الزركلي، الأعلام، ج.1، دار الملايين، بيروت، ط.2، 1989، ص. 117.

هذا الكتاب شرح للقصيدة الغزلية المسماة "القصيدة الغرامية في ألقاب الحديث" التي نظمها أبو العباس الإشبلي في ألقاب علوم الحديث.

ترجمة ابن فرح الاشبيلي: هو الإمام شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن فرح بن أحمد بن محمد، اللخمي، الاشبيلي، الشافعي. ولد باشبيلية، سنة خمس وعشرين وستمائة (625هـ/1228م)، تقريبا، وبقي في أسر الإفرانج مدة، ثم خلصه الله منه.

قرأ بمصر على ابن عبد السلام، وسمع بدمشق من ابن عبد الدائم، والكرماني، وطبقتهما، ودرس بالجامع الأموي. كان إماما محدثا، متقنا، عارفا بالفقه، كثير الإفادة، متزهدا عابدا، صالحا مهيبا، مديد القامة، تتلمذ على يديه كثير من العلماء، منهم الدمياطي والنابلسي. والبرزالي، وغيرهم. توفي سنة (799هـ1299مـ).[1]

من مؤلفاته: شرح الأربعين، كتاب مختصر خلافيات البيهقي (مخطوط).

القصيدة الغزلية:

هي منظومة في علوم الحديث تتألف من عشرين بيتا[2] من البحر الطويل، شرح منها ابن قنفذ ستة عشر بيتا، وأبقى أربعة لم يذكرها، فلعله لم يعرف منها غير ما شرحه.

وقد طبعت هذه القصيدة مستقلة عدة مرات.[3]

وقد تضمنت هذه القصيدة من علوم الحديث ما يلي:

الصحيح، المعضل، المرسل، المسلسل، الشاهد، الضعيف، المتروك، الحسن، السماع، المنكر، المقلوب الموضوع، المدلس، الموقوف، المرفوع، المتصل، المنقطع، المدرج، المتفق والمفترق، المؤتلف والمختلف المسند، المعنعن، المعلل، المبهم، الاعتبار، العزيز، الفرد، المشهور، الغريب، المقطوع، العالي والنازل، المدبج.

1- السبكي، طبقات الشافعية، ج.5،

2- هكذا أوردها المقري في نفح الطيب(530/2)، وهي خلافا لما في كشف الظنون (1865/2)، حيث عدها ثلاثين بيتا.

3- ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 16.

- شروح القصيدة الغرامية:

لقد شرح هذه القصيدة كثير من العلماء، حتى قال المقري:" وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب، يطول تعدادهم"،[1]ولكن معظم هذه الشروح ما زال مخطوطا، فيما يلي استعراض لبعض هذه الشروح، مع بيان المطبوع منها، والمخطوط، وأماكن وجوده.

1- شرف الطالب في أنسى المطالب: وهو هذا الكتاب، ومنه نسخ كثيرة منها:

1- نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر، تحت رقم(2970).
2- نسخة في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : (52150).
3- نسخة عند الشيخ (الطيب) الزديري، بمدينة بوسعادة، ولاية المسيلة، الجزائر، وفيه نقص في آخره.
4- نسخة بتطوان، تحت رقم: (532).
5- نسخة بالمكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم : (462915465605)
6- نسخة بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب، تحت رقم: (17932).
7- نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس، تحت رقم: (222664) (4438 مبتور الآخر).
8- نسخة بالخزانة الصبيحية بسلا، تحت رقم(179/1).
9- نسختان بالخزانة الناصرية. تمكروت، تحت رقم: (2888/3204).
10- نسخة بدار الكتب المصرية، تحت رقم (174).

2- زوال الترح شرح منظومة ابن فرح: للقاضي ابن جماعة. ونسخه أيضا كثيرة، منها:

1- نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر، تحت رقم: (995).
2- نسختان بمكتبة باريس، تحت رقم: (5317،7541)، وقد ذكر في النسخة الثانية أنه في ثلاثين بيتا.
3- نسخة بجامعة الرياض، تحت رقم: (2/1520م): (ق124120).
4- نسخة بجامعة قاريونس بليبيا، تحت رقم: (212).
5- نسخة باسكريال، تحت رقم(949)(ق4951).
6- نسخة بتطوان، تحت رقم: (20)، و (650).
7- نسخة بالحرم المكي، تحت رقم: (3826).
8- نسخة بالخديوية، رقم عام: (23795)، رقم خاص (1128).

[1]- المقري: نفح الطيب: (531/2).

3- شرح ابن عبد الهادي على منظومة ابن فرح.[1]

4- علوم اللغة:

1- **هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك**: وهو في حكم المفقود. [2]

2- **الإبراهيمية في مبادئ العربي**[3]، وهو في حكم المفقود.

3- **التخليص في شرح التلخيص**[4].

4- **علامة النجاح في مبادئ الإصطلاح**[5].

5- في علم المنطق:

1- **إيضاح المعاني في بيان المباني**: وهو في حكم المفقود.

2- **شرح لرجز في المنطق**: نظمه الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن المراكشي الضرير.

3- **تلخيص العل في شرح الجل للخونجي:** وهو مفقود.

المبحث الثاني: العلوم العقلية

من خلال ثبت المؤلفات التي تركها ابن قنفد ووضع لها لائحة في كتابه شرف الطالب ندرك بأن إنتاجه الرياضي أو ماله صلة بالرياضيات من جبر وحساب وفلك و غيره يقارب ربع إنتاجه الكلي.

ورغم هذا فلم يشراليه ولم يهتم بهذا الموروث النادر ومنه ما يحمل ليومنا هذا مضامين ما خلفه هذا العلامة الموسوعي.وخاصة في مجال الأعمال الرياضية التي كان روادها او من المهتمين بما في المغرب الأوسط قليل.

وخلال القرن الثامن الهجري ازداد النشاط العلمي والفكري وبقي مستمرا ونالت الرياضيات أو الأعمال الحسابية الرياضية حظها وافرا من بداية القرن الثاني عشر ميلادي أكثر مما كانت عليه في القرون السابقة

---

[1] - ابن قنفذ، شرف الطالب، المصدر السابق، ص. 57.

2- ويعتبر الآن ضائعا. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، المصدر السابق، ص. 41.

[3]- وهو ضائع، ينظر، ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 41. وينظر: الوفيات، ص. 15.

4- في فهرس المخطوطات بالرباط ص. 134 التمخيص وفي أنس الفقيرالتمحيص، وفي المكتبة القومية بتونس التلخيص. ينظر الوفيات، ص. 15.

5- وهو مفقود، ينظر: ابن قنفذ، الفارسية، ص. 82. وينظر: شرف الطالب، ص. 45، والوفيات، ص. 15.

وهذا يدل على تأثير المدرسة الأندلسية والمتمثلة في المؤتمن بن هود(ت 487)1 (1085)والزهراوي (ق11م) وغيره.

كما يجدر بي الاشارة الى أهم الرياضيين المغاربة وهو ابن البنا المراكشي (ت721-1321) الذي كان فيه تأثير كبير على التقليد الرياضي في المغرب الكبير الاسلامي وقد نال شهرة بين تلامذته وشراحه والذين تعددوا فيما بعده وابتداء من القرن الرابع عشر ميلادي فان أغلب مؤلفين المغ رب الاس لامي ينتم ون الى مدرس ة م راكش و ن ذكر م نهم الايل ي مثلا(ت757-1356) ، تلميذ بن البنا المراكشي الذي سافر إلى تونس ودرس بها وبتلمسان، ثم مدينة فاس[1]، ونجد كذلك العلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت807/1406)[2] الذي تتلمذ على الإيلي في الرياضيات وقد أشار في مقدمة كتاب العبر في باب تصنيف العلوم ولا سيما الرياضيات إلى أسماء كتب رياضية ألفت في المغرب[3].

ومن بين الرياضيين الذين ألفوا في هذه الفترة والذين انصب اهتمامهم على مؤلفات ابن البنا وشرحوا بعضها العلامة ابن قنفد القسنطيني في كتابه النقاب عب وجوه أعمال الحساب.

وهكذا يظهر إنتاج ابن قنفد تواصل لذلك النشاط الرياضي والذي عرفته هذه الفترة من القرن الثامن هجري. كما أن ابن قنفد كان يمثل أبعد أقطاب العلاقات العلمية الوثيقة، إذ كان من العلماء الذين ساعدوا على تنقل الأفكار بين مختلف جهات المغرب الإسلامي وخاصة حواضره العلمية.

1- الحساب والرياضيات:

إذا ما حوصلنا آثار ابن قنفد الرياضية باستثناء مؤلفاته في علمي الفلك والتنجيم فإنه بالإضافة إلى مؤلفه حط النقاب في الرياضيات فنجد ثلاثة عناوين أخرى تضاف إليه، وهي:

1-1- مبادئ السالكين في شرح رجز بن الياسمين:[4]

وهو شرح لأرجوزة ابن الياسمين [1] في الجبر والمقابلة التي شرحها ابن قنفد بالطريقة التقليدية والمستخلص من هذا الشرح هو استعماله للرموز الرياضية في حل المعادلات وتمثيله لكثيرات الحدود.

1- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1979/ص21-23.

2- العلامة الشهير صاحب كتاب العبر . أخذ عن بعض الرياضيين، كالآيلي وغيره. ينظر ابن خلدون، التعريف بابن خلدون/ ص ص. 21-23.

3- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،ج.6

4 -منه نسخة في المكتبة الصبيحية بسلا، رقم: 237- 6، الرباط. ينظر: ابن قنفذ، شرف الطالب، ص. 45.

والجدير بالذكر أن هذا الاستعمال يظهر كأنه عادي في زمانه إذ أن في تلك الفترة مقارنة بمعاصريه ومن سبقوه ويدل على أن الترميز كان متداولا في الأعمال الرياضية في المغرب الإسلامي وهذا الاحتمال يدعمه وجود نفس الرموز في كتابه حط النقاب وفي مؤلفات مغاربية أخرى كمؤلفات ابن البنا وغيره من علماء الرياضيات العرب.[2]

2- **بغية الفارض من الحساب والفرائض.** [3]

3- **التلخيص في شرح التلخيص:** وهو تلخيص حط النقاب.[4]

4- **سراج الثقات في علم الأوقات.**[5]

5- **بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية.** [6]

6- **حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب:** [7]

وعن مؤلفه الرياضي "حط النقاب" عن وجوه أعمال الحساب فهو أهم ما ألف ابن قنفذ في الرياضيات سنة(772-1370) بمدينة فاس أي بعد اثنين وثلاثين سنة من عمره قضاها في الطلب والتحصيل وقد ساعده هذا الجو العلمي بمدينة فاس ليجمع بين التأليف والإفتاء والقضاء قبل عودته سنة(776-1374) إلى قسنطينة.

ومع أنه أهم مؤلف لابن قنفد في الرياضيات نرى من الضروري أن نقدم بعض العناصر التي يحتويها مبرزين مكانته ضمن التقليد الرياضي المغاربي في الفترة الواقعة القرنين الثالث عشر والرابع عشر ميلادي .

مضمون حط النقاب: هذا الكتاب شرح لكتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البنا المراكشي ويعرض مضمون الكتاب على النحو التالي:

1- مقدمة طويلة تحتوي على سرد وتفسير ثماني إرشادات لإعانة الدارس في قراءة مؤلف ما، ثم يقدم قائمة مفصلة المؤلفات ابن البنا، الشيء الذي يجعلنا ندرك مكانة الدقة العملية والتاريخية ومنهجية العمل عند ابن

1- ابن الياسمين هو أحد الرياضيين الذين تأثر بهم ابن قنفذ، وشرح أعمالهم الرياضية. ينظر: يوسف قرقور، الأعمال الرياضية لابن قنفذ، أطروحة ماجيستير، المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر، 1983، ص. 139.

2- يوسف قرقور، الأعمال الرياضية لابن قنفذ، ص.139.

3 - وهو مفقود. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 15. وشرف الطالب، ص. 41.

4- مخطوط بالرباط، المكتبة الحسنية رقم 8563، المكتبة العامة 1070، وورد في: أنس الفقير "التمحيص"، ص. ر. ينظر: الوفيات، ص. 15.

5 - ورد في فهرس مخطوطات الرباط ص. 133شرح الثقات ومثله في أنس الفقير. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 14.

6- وهو مفقود وضائع. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 15.

7- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 86. ومن مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 2429. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 15.

قنفد حتى أننا نجده يؤكد أنه لم يعط في القائمة سوى عناوين الكتب التي رآها بعينيه باستثناء اثنين ذكرهما بدقة.

2- وبعد إعطائه لهذه القائمة يتعرض إلى شرح التلخيص بطريقة تقليدية، إعطاء جملة أو فقرة يشرحها رياضيا وحتى لغويا في بعض الأحيان، ولا نلاحظ أن هذا الشرح يتميز بتعدد الأمثلة وبعدم إعطاء البراهين، وإدخال بعض الآراء لمؤلفين آخرين معتمدا في بعض الأحيان على كتب رياضية مازالت مفقودة لحد الآن مثل قانون القاضي الشريف المراكشي(84-1282)، وهو رياضي عاش قبل ابن البنا وكان أستاذا له في الرياضيات، وتتلمذ على ابن منعم، وكتاب لابن طاهر وهو رياضي أندلسي يحتمل أنه من القرن الثاني عشر وقد ذكره ابن منعم في كتابه "فقه الحساب" ونشير أيضا أنه استعمل مضمون كتب رياضية أخرى دون أن يذكرها بوضوح مثل:

1- مؤلفات الحصار.

2- كتب الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة لابن البنا.[1]

3- كتاب تلقيح الأفكار في العمل برشوم الغبار لابن الياسمين.[2]

وهناك كتب ذكرها نصا، نذكر منها:

1- رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب لابن البنا.

2- الأرجوزة في الجبر والمقابلة لابن الياسمين.

3- تيسير المطالب في تعديل الكواكب لابن قنفد.

أما فيما يخص المادة الرياضية لحط النقاب فأننا نلاحظ وجود طرق رياضية أو مواضيع لم ترد في كتاب التلخيص وبما أن ابن قنفد لا ينسبها لنفسه نستطيع اعتبارها من التقليد الرياضي المغاربي أو الأندلسي، فمن بين هذه الطرق والمواضيع نذكر:

1- الطريقة التي سلكها ابن قنفد في عرض كتابه حيث يبدأ كل باب بتقديم قائمة بمواضيع هذا الباب وعلى سبيل المثال: باب الضرب قسمه إلى ستة مواضيع وباب الجبر إلى ثلاثة عشر موضوع.

2- استعماله للرموز الرياضية في أبواب الحساب عند تمثيله لمختلف الكسور في باب الجذور وفي باب الجبر عند كتابة المعادلات.

3- هناك استعمال جديد للصفر في الحساب حيث يظهر الصفر وكأنه عدد دون أن يشير إلى ذلك فنراه يشتعمل ما يلي:

أ + 0 = 0 + أ = أ

1- يوسف قرقور، الأعمال الرياضية لابن قنفذ، ص. 173.

2- المرجع نفسه، ص. 175.

4- ظهور المعادلة ذات الطرف الصفري، والتي تطرق لها ابن بدر، كما نجدها عند ابن زكريا الغرناطي، والجديد عند ابن قنفذ هو استعماله للمعادلة بالرمزية الجبرية فوضعها على الشكل:

(0 = 7 – 8س)

5- عرض لبعض الصيغ الحسابية غير المذكورة في التلخيص وخاصة في باب الضرب مثل

$$بأ = \left(أ - \frac{2أ}{أ + ب} \right)(أ + ب)$$

6- يستعمل بن قنفذ مصطلحات رياضية تختلف أحيانا عن مصطلحات ابن البنا، يسمى ابن قنفذ "موجبا" ما يسميه ابن البنا "زائدا" ويسمى "منفيا" ما يسميه ابن البنا "ناقصا" ربما هذا الخلاف الذي يظهر لنا ثانويا يدل في وقته على وجود تقليد جبري يخالف ولو في التغيير، التقليد الخوارزمي الساند.

7- حله لمسألة عددية لم يتطرق لها ابن البنا في التلخيص معتبرا أن لا جدوى في هذه المسألة.[1]

وهذه المسألة هي البحث عن طرق إنشاء المربعات السحرية(أي إعداد الوفق حسب التعبير العربي الكلاسيكي).

تعريف المربع السحري: المربع السحري من رتبة ط هو مربع مجزء إلى ط2 مربع بحيث توزع الأعداد الطبيعية من 1 إلى ط2 كل واحد في بيت من بيوت هذه التجزئة بحيث يكون مجموع كل عمود أو كل سطر أو كل من القطرين الرئيسين نفسه(أي متساوي) ويقدم ابن قنفذ في بداية إنشائه لهذه المربعات صيغة تعطي مجموع كل سطر أو كل عمود أو كل قطر رئيسي لمربع سحري من الرتبة ط فإن ابن قنفذ يعطي الصيغة العامة كالأتي:

$$مج = \frac{ط}{2}(ط2 + 1)$$

ويلاحظ أن هذه الصيغة تفيد في مراحل بناء المربع السحري، ثم يقسم ابن قنفذ المربعات السحرية إلى أربعة أقسام لأن كل قسم له كيفية خاصة في إنشاء المربعات مرتبطة بزوجية أو فردية ضلع المربع:

- إنشاء المربعات السحرية من الرتبة زوجي – زوجي (أي أن ط = 2ن،ن>1).
- أو من الرتبة زوجي وزوجي فردي (أي أن ط = 2ن (2ك + 1)، ك> 1 ، ن > 1).

1- يوسف قرقور، المرجع السابق، ص. 143.

- أو من الرتبة زوجي فردي(أي أن ط =2(2ك+1)،ك>1).
- أو من الرتبة فردي(أي أن ط =2ك+1ك>1).

نشير هنا إلى أن الطرق التي استعملها ابن قنفد في ملء بيوت المربعات نجدها عند علماء سابقين له مثل ابن الهيثم (ت1039/430ك) ومؤلف مجهول من القرن الثاني عشر ميلادي.[1]

وهذا ربما يدل على انتقال الأفكار الرياضية من المشرق إلى المغرب وبما أن ابن قنفد لم يكن الأول الذي تطرق إلى هذا الموضوع في المغرب العربي الكبير، فإننا نشك أنه اقتبس من رسالتين مغاربيتين قد توسعنا في هذا الموضوع هما:

- رسالة ابن البنا في إعداد الوفق.
- ورسالة ابن منعم في استنباط إعداد الوفق وهما مفقودتان لحد الآن.

وفي ختام هذا العرض المتواضع، نود التطرق إلى نوعية مساهمة ابن قنفد القسنطيني وعلماء عصره في التقليد الرياضي العربي الكبير بصفة خاصة، نستنتج مما سبق ذكره أن هؤلاء العلماء لم يأتوا ببرهنة جديدة أو خوارزمية جديدة في ميدان علم الحساب، وهذه الظاهرة ليست خاصة هؤلاء العلماء لأن الأبحاث الحديثة لم تظهر أي تجديد عند كل رياضي هذه الفترة ا في المغرب العربي الكبير ولا في الأندلس. ولكن هذا لا ينقص من أهمية أعمال ابن قنفد وهؤلاء العلماء في مجال الرياضيات إذا ما ارتبكت نشاطاتهم بالبيئة العلمية في عصرهم، وهذه الأهمية تظهر على مستويات مختلفة نذكر منها:

1- الترمز في الرياضيات والذي نعتبره مساهمة أصيلة من رياضي المغرب العربي الكبير.

2- إدخال معلومات لعلماء مازالت كتبهم مفقودة، وهو ما يفتح مجالا للبحث والتنقيب عن المخطوطات التي لا تزال في الرفوف أو نائمة تنتظر من يزيل عنها الغبار.

3- إدخال مصطلحات جديدة في مجال الحساب.

4- المساهمة في استمرارية التقليد الرياضي في المغرب العربي الكبير في ميدان التعليم.

إن منطقة المغرب العربي الكبير حافة بالأعمال الهامة والمساهمات الفعالة في ميدان العلوم بصفة عامة والرياضيات بصفة خاصة في العصر

1- يوسف قرقور، المرجع السابق، ص ص. 117-118. وينظر:
- محمد المنوني، نشاط الدراسات الرياضية في المغرب خلال العصر الوسيط، مجلة المناهل، الرباط، العدد: 33، ديسمبر 1985، ص. 77.

الوسيط كأعمال ابن منعم(ت 1228) وأبو بكر الحصار(القرن 13م) وابن البنا المركشي(ت1321) والقرشي(القرن 13م) وابن الياسمين(1206) وابن قنفد القسنطيني(ت 1407) وابن عزوز القسنطيني(ت 1353م) وغيرهم لذا لا بد من لفت الانتباه إلى أهمية دراسة المخطوطات العلمية المتواجدة في المكتبات العامة أو الخاصة ومحاولة فهرسة هذه المخطوطات المبعثرة هنا وهناك، ليتسنى للباحثين دراستها.

2- الفلك:

1- **القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية.**[1]

2- **تيسير المطالب في تعديل الكواكب:** توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط وأخرى بالخزانة الملكية بالرباط. ومنه نسخة بالمكتبة الصبيحية بسلا تحت رقم: 123/1، 216/6، 359/11، 507/2.

ويعتبر هذا الكتاب من نوادر ما ألف ابن القنفذ في هذا المجال، حيث أنه قال عنه: "ولم يتهم أحد إلى مثله من المتقدمين.

3- **تحصيل المناقب وتكميل المآرب:** [2] في حكم المفقود وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط.

4- **سراج الثقات في علم الأوقات:** ورد اسمه في مخطوطات الرباط، لكنه مفقود.

5- **تسهيل العبارة في تعديل الإشارة:**[3] اشتمل على أربعين باب وستين فصلا.

6- **تيسير المطالب في تعديل الكواكب:** ولم يهتد أحمد على مثله من المتقدمين.[4]

7- **وقاية الموقت ونكاية المنكت.**[5]

8- **تقييدات في مسائل مختلفات.**[6]

شرح المنظومة الحسابية في القضايا النجومية[1] لأبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني.

---

[1] - يعتبر ضائعا. ينظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص. 15. وشرف الطالب، ص. 42.

2- هو شرح لكتابه تيسير الطالب في تعديل الكواكب، وتوجد منه نسخة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط. ينظر: الوفيات، ص. 14.

3- في المرجع السابق ص: 133 تسهيل العبارة في تعديل العبارة ومثله في أنس الفقير ويعتبر في حكم المفقود.

4- يسمى أحيانا تسهيل المطالب. منه نسخة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 512 مكررة وهو الثاني منه، ونسخة بالمكتبة الملكية تحت رقم: 5262. ينظر: الوفيات، ص. 14.

5- ابن قنفذ، الفارسية، ص. 82. وينظر: الوفيات، ص. 15. وشرف الطالب، ص. 13.

6- هو شرح لكتاب تيسير الطالب في تعديل الكواكب. توجد منه نسخة مخطوطة. ينظر: الوفيات، ص. 17.

2- الطب: له مؤلف واحد وسمه بـ: "أنس الحبيب عند عجز الطبيب".[2] وله أرجوزة في الأغذية والأشربة بدايتها "الحمد لله القادر المنير الأحد الفرد القدير الفاطر الباري المصور الغفار الملك المهيمن القهار أحمده على توالي النعم حمدا كثيرا دافعا للنقم...وجعل الطب قسيم الدين بقوله علمان بالتبيين... القول في طابع الحبوب الشهرة والتجريب". ونهاية المخطوط: "واعلم بأن صحة الأبدان هي التي تنفع في الإنسان وأحوج إليه الأمر لكونهم أئممة بلا امتراء...وهاهنا انتهت بنا المعاني يسعد مولانا الرفيع الشان ثم السلام الطيب العلي العاطر اللمبارك الندي على مقامك الرفيع الغادي ما غرد الطير بكل واد من منشيء النظم على الترتيب أحمد بن حسن الخطيب عدتها رضا بلا اختلال يرى عليها السعد والإقبال تاريخها في رجب الفرد الأصم من عام بعد ذلك الختم انتهت الأرجوزة المباركة بحمد الله وحسن عونه". وموضوعها الطب والصيدلة والبيط رة والحي وان والنب ات. الموض وع الث انوي فيه ا ف ي الأغذي ة والأشربة. وعدد أبيات هذه المنظومة 248 بيتا، وتاريخ تأليفها بحسب البيت الأخير في رجب782هـ.[3]

1- منه ثلاث نسخ بالخزانة بالرباط، وأربعة بتونس، وواحدة بلندن بالمتحف البريطاني. ينظر: الوفيات، ص. 16.

2- في أنس الفقير وفهرس مخطوطات الرباط عن عجز ويعتبر ضائعا. والوفيات، ص. 17.

3 - عدد ورقاتها سبعة، وقياسها 130×200مم. توجد نسخة من هذه المنظومة ضمن مجموع رقم 515 بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم تصنيفها 179- 1، وتوجد هذه النسخة لدى مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب. في الموقع الإلكتروني للمؤسسة: <http://www.fondation.org.ma/fonda/manuscri/notice.asp?&ici_aut=1&passetout=2&p, >, 02/06/2006.

من خلال هذه الدراسة التي تناولت أحد الأعلام والرموز الفكرية، التي تركت بصماتها في تراث المغرب الإسلامي، وتركته الثقافية والعلمية، ضاربا وثاقا ضروب العلم والمعرفة باختلاف تخصصاتها، رغم الظروف السياسية والاجتماعية التي سادت عصره، ورغم الاضطرابات التي لاحقت علماء عصره، واشتدادها خلال القرن الثامن الهجري.

فقد استهلت هذه الدراسة بالحديث عن عصر ابن قنفذ، بجوانبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي تنوعت من حيث الاضطراب والاستقرار خاصة سياسيا. فكانت داعيا ومشجعا له على المضي نحو طلب العلم والاستزادة من منابعه ومعينه الصافي، وهذه الظروف قربته من البلاط الحفصي، أحد أهم الحوافز التي سهلت له مهمة التحصيل والتأليف، وتقلده لمناصب القضاء والفتيا بالمغرب. وكان داعيا ليتحين من خلاله الفرص للتأليف وملاقاة العلماء وزيارة الصالحين، كما ذكر في رحلته العلمية والزيارية.

وبحكم الموضوعية التي تحلى بها، وتضلعه في مختلف العلوم والفنون عقليها ونقليها، استطاع ابن قنفذ أن يحظى بتقدير علماء عصره وولاء الحفصيين له ولأسرته.

وما يلاحظ على ابن قنفذ، هو مشاركته في الأحداث التاريخية، ومعايشته لأغلبها، وتسجيل وقائعها، من خلال فارسيته، فكان من بين النتائج المستخلصة، ما يلي:

إن القيمة العلمية لهذا العمل هو أنه حاول الإحاطة بشخصية علم من أعلام الجزائر المغمورين، العلامة ابن قنفذ القسنطيني، من جميع جوانبها، والوقوف عند معالمها البارزة بصبغة شمولية لم تذكر من قبل، مع الإشارة أولا إلى النبوغ.

ولعل هذه الدراسة تكون قد أجابت عن بعض هذه التساؤلات، فتم تبسيط الحديث عن عصره، وفي العوامل الداخلية والخارجية، والبيئة الاجتماعية، وخاصة السياسية التي كان لها تركيز في إبراز شخصيته وعوامل نبوغه. وأسهمت في اعتلائه مراكز عالية في البلاط الحفصي، وحتى في المغرب، بتقلده لمناصب القضاء والفتيا والتدريس، هذا كان دأب عائلته بقسنطينة مسقط رأسه التي اشتهرت بالخطابة، ولذا سمي بابن الخطيب، وهذه كانت من علامات التفوق والمعرفية الواسعة.

كما نطمح من خلال هذه الدراسة، أن تكون قد كشفت عن شخصية علمية موسوعية، متعددة التخصصات رحبة الأفاق. فابن قنفذ محدث لغوي وفقيه متصوف، ومفكر اجتماعي من خلال ترسانة تآليفه.

كما أنه مصلح تربوي، ومحقق للتراث بارع في ثقافته العميقة العريقة، عراقة عصره، وعبقريته لغوصها في اختصاصات فاقت من سبقه، كعلمي الفلك والحساب.

ومن خلال هذه الدراسة كذلك يمكن معرفة الطرق والأصول التي عملت على تغذية هذه العقلية، والاطلاع على التيارات الثقافية، التي تفاعلت في زمنه، وأحدثت أثرها في نفسه. وكان لشيوخه الذين أخذ عنهم أثر في ثقافته وعلمه ومساعيه، وكذا أسرته، وما امتازت به من توجيهات علمية كان لها أبعد الأثر في بروز مترجمنا. ويتضح من خلال ذلك المستوى الثقافي والفكري والعلمي السائد آنذاك لدى الأسر الجزائرية العلمية، وأثرها في نبوغ أبنائها، وهذا ما قل اليوم في أهل المغرب.

والقيمة العلمية التي تظهر في هذا البحث، أنها ألمت بجوانب شخصية ابن قنفذ، وذلك من خلال اختلاف موضوعات تآليفه.

وفي الحديث عن هذا الجانب، الذي لم يتطلع إليه إلا القليل من علماء المغرب الأوسط وقتذاك، على غرار علماء المغرب الأقصى. ويظهر ذلك في كتابه "شرف الطالب"، الذي أبدع في شرح "غرامية الحديث" لابن فرح الإشبيلي، وهذا يدل دلالة واضحة على دراية ورواية ابن قنفذ في هذا المجال، وامتاز عن غيره بالإضافات العلمية، التي لا تقل أهمية عما قام به أئمة هذا العلم. ويظهر ذلك في سعة النظر والاطلاع وكشف المغطى لعلم الحديث خاصة، ولباقي العلوم والفنون بصفة عامة.

وقد كان ابن قنفذ فقيها مجتهدا، ولج هذا الباب من خلال اعتماده على من سبقوه، كما عرف بمناظراته كالتي خالف فيها رأي البجائيين من علماء عصره في قضية كانت من أخطر القضايا؛ وهي ثبوت النسب من جهة الأم. ويتعلق الأمر بثبوت الشرف، أو عدمه.

وقد أثاره بعض فتاواه، جدلا كمسألة ثبوت النسب من جهة الأم، وقد أوضحت ما دار فيها من جدال.

أما الفكر الاجتماعي، فكان له حظ في آثار وفكر ابن قنفذ، من خلال قضايا اجتماعية لإصلاح الفرد والمجتمع.

كما أن إسهامه في علم التراجم والتاريخ والسير زاد في معرفته ووسع موسوعيته العلمية الجبارة، من خلال وفياته وفارسيته، التي أبدع فيها منهجا وترتيبا للأحداث والتسلسل التاريخي والزمني لكلا المؤلفين.

ولغويا، نجده في إبراهيميته، يتحدث عن مبادئ اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة، ولذا فقد أعطى اللغة العربية حقها واعتنى بها عناية بالغة، وكان هذا إسهاما جليل القدر في إثرائها، ويدل على توسعه وتبحّره فيها.

أما عن العلوم العقلية التي برع فيها، أيَّما براعة، فقد سبق معاصريه في الخوض في غمار علم الحساب، وعلم الفلك وكان ذلك مقارنة بأعلام عصره ضربا من المجازفة، لكثرة الخائضين في العلوم النقلية وبروز المقادين وكثرة مختصراتهم وشروحهم والتكرار الممل، بأنه اختار مجالا ومسارا مغايرا، لا ما يلجه إلا ذوو المقدرة. وقد أجاد فيه ولم يسبقه أحد، بشهادته وشهادة غيره في الفلك، والذي يحتاج إلى دراسات متخصصة وجادة، في هذا المجال.

وقد خلصت الدراسة إلى بعض النتائج التي من شأنها الإجابة عن إشكاليتها، أن ابن قنفذ قسم حياته العلمية إلى ثلاثة مراحل؛ الأولى بقسنطينة، والثانية بالمغرب وتلمسان، والثالثة بتونس وقسنطينة. وهذا ما جعلنا نقسم تآليفه إلى ثلاثة فنون. ففي بدايته العلمية ركز على النقليات، وألف فيها لدى وجوده بالمغرب. ولما توجه للبلاط الحفصي، ألف في التاريخ، والسير والتراجم. وأخيرا عند استقراره بمسقط رأسه، لزم حياة الزهد، وألف في الروحيات؛ كالتصوف. وهذه لفتة لم تذكر من قبل، فمنذ بدايته العلمية لم يترك الكتابة حتى آخر حياته. وبذلك يكون ابن قنفذ قد جمع بين العقل والنقل، رغم عقلنته كما يوصف. وباعتباره أحد أقطاب العلاقات العلمية، إذ كان من العلماء الذين ساعدوا على تنقل الأفكار بين مختلف أقطار المغرب وحواضره العلمية.

وتبقى الإشارة في الأخير، إلى أن هذا البحث قد حاول الكشف عن علامة تستحق آثاره البحث والتنقيب والدراسة، خاصة في مجال العلوم العقلية، ، ويبقى العمل محتاجا إلى المزيد من البحث المتواصل، بغية استخراج المكنونات والآثار المركونات في الخزائن رغم ضياع أكثرها، وصعوبة الحصول على ما بقي منها.

ولعلنا بهذه الدراسة، نكون قد بينا ولو الشيء القليل من شخصية ابن قنفذ وآثاره القيمة، والتي ربما تفتح الباب لدراسات مفرده لكل فن، يستطيع الراغبون في هذا أن يفكروا ويختاروا منها ما يرون انه جدير بالدراسة العلمية. فمحاور هذا البحث تستحق أن يعيد القارئ النظر فيها، إما متابعة، أو إضافة، أو إكمالا وزيادة واستقصاء، للتعرف على هذا العلم. وهذه مسألة هامة، إذ يجب على كل باحث أن يوجه في ختام دراسته إلى النقاط التي يعتقد أنها ما تزال في حاجة إلى جهود الآخرين، ما دمنا نؤمن بأنها المعرفة الحقة، لا تعترف بالكلمة الأخيرة، فمن عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل، وعساها هذه الدراسة أن تضع لبنة في صرح المعرفة، وتكشف عن

جانب من جوانب الثقافة الإسلامية لمرحلة، وعصر وأمة، من خلال علم من أعلام الفكر والثقافة.

تعليقات:

بعد استعراض آثار ابن قنفذ، والوقوف على أغلب مضامينها، تظهر لنا سعة اطلاعه وتبحره في فنون عدة، سواء تأليفا مستقلا أو تقييدا أو شرحا، أو سبقا. تبقى نجابته وحصافة فكره، وذهنيه الثاقبة تعبر عن جهده في التحصيل، والتدوين. وهذه الموسوعية التي وصف بها من خلال التنويع في فنون الفكر والثقافة والعلم التي امتاز بها، وقد أشار إليها الكثيرون ممن عاصروه، وممن ترجموا له، حيث عبر أبو القاسم سعد الله من خلال ذكره لموسوعية أبي راس وشبهها بموسوعية ابن قنفذ، هذا ما يؤكد مكانة هذا الأخير بين العلماء. هاته الترسانة التي دونها في زمن يسير، وفي ظروف سياسية غير عادية سادها التوتر واشتد فيها التنافس بين الأمراء والسلاطين بين دويلات المغرب الإسلامي، كما تم ذكره سابقا.بالرغم من ما قدمه من إنتاج إلا أن ابن قنفذ لم ينج ولم يسلم من سلق الألسنة ونقد العلماء والمفكرين، فوصف كغيره من العلماء الذين لازمهم وصف علماء البلاط، أو علماء السلاطين لقربه من السلطة الحفصية، وملازمته لها هو وعائلته، وذاع هذا الوصف وطار صيته. وبرأيي أن هذا التقرب من السلطة الحاكمة كان خادما له ولغيره من العلماء، وحاميا لهم ومنافحا بالدرجة الأولى له من الاضطهاد والمتابعة، مما سهل له التدريس والتأليف والتحصيل، بل وزاد في بعث قلوب بعض السلاطين حب العلم وأهله، مثلما حدث مع السلطان أبي زكريا الحفصي، وأبي فارس الذي شجع العلماء وأنشأ المدارس والزوايا، وأجرى للطلبة جرايات، وزاد في حلقات العلم والتدريس بجلب العلماء من أقطار المغرب، وهذه كانت من أكبر المزايا التي ساهمت في نشر العلم وتحفيز طلابه للإقبال على طلبه، فلذلك كان قربه من البلاط الحفصي خدمة للعلم، لا تزلفا أو تملقا، أو طلبا للرزق والمال، كما شاع على بعض علماء وشعراء البلاطات السابقين، وعلماء القصور. ووجه هذا الانتقاد كذلك إلى التنسي، حيث ألف دره وعقيانه للسلطان أبي عبد الله ابن أبي تاشفين الزياني، كما أهدى ابن قنفذ فارسيته للسلطان أبي فارس، وسماها باسمه. كما ان الشاعر الحوضي يسخر قصائده في مدح السلطان أبي عبد الله الزياني، بينما أحمد خلوف القسنطيني يشيد بالسلطان أبي عمرو عثمان الحفصي. وبما أن ابن قنفذ كان في شرق المغرب الأوسط، والتنسي في غربها كلاهما مؤرخين لدولتين متنافستين، ولم يكن سلاطينهما أقوى ولا أشد سطوة.

وقد سجل الكثير من شعراء وأدباء البلاط الذين كان قربهم من السلطة بدافع التملق وغرض المدح للحصول على المال والعطاءات والهبات دون مراعاة لمبدأ ولا عز نفس. بينما الأمر عند ابن قنفذ وغيره من علماء المغرب الإسلامي، خاصة علماء المغرب الأوسط الذين يحفظ لهم التاريخ هذه الميزة،

كما حفظوا ماء وجوههم لدى الأمراء، فابن قنفذ كان من أسرة معروفة بالثراء ذات جاه وعلم وعزّ، وإنما عرضت عليه هذه المرتبة لدى السلطان ولم يطلبها، كما أن تأليفه للفارسية كان بإيعاز وطلب من السلطان نفسه، بل وبإلحاح. وتعد الفارسية من أوائل ما دون في التاريخ، وهذا يسجل كذلك للتنسي في درّه بطلب من السلطان أبي عنان الذي أولى هو الآخر عناية للعلم وأهله، وأنشأ المدارس والمراكز لذلك، كما أن ابن قنفذ في زمن تواجده لدى السلطة الحفصية كان إنتاجه أغزر وأوفر، وذلك يعود للسعة التي وجدها هناك وساعدته على التدوين والتأليف. كما أن انفتاحه على السلطة جعله يطلع على أرشيف الدولة الحفصية، ويحضى بالحرية في تنقله وتوفير أسباب التأليف وإفادة علماء عصره، وعقد الندوات والسجالات، عكس ما كان يفعله بعض علماء وشعراء البلاط السيئين بغمط الناس بالباطل، ومدح السلاطين بما ليس فيهم.

كما قال الونشريسي والمقري أن شر العلمااء علماء السلاطين، فتقرب ابن قنفذ من السلطان الحفصي، كان هدفه إصلاح ما فسد، والتقليل من الفساد.

وأخيرا، فابن قنفذ كان في خدمة الحفصيين سيرا على سيرة والده وجده لشعوره بواجب الخدمة، واعترافا بالجميل، وإظهارا لمكانة قسنيطينة لدى السلطان الحفصي، وتبرئة لسكانها من تهمة الثورة ضد السلطان أبي فارس واتقاء غضبه، وما يترتب على ذلك من نتائج. كما لم يكن كتابه الفارسية اعتذارا، بل عربون وفاء.

القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم)

1/ المخطوطات:

- التلمساني المليتي المديوني ابن مريم أبو عبد الله بن أحمد الشريف، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، مخطوط باحدى الخزائن الخاصة بوهران.
- الناصري أبو راس محمد، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم: .1632

2/ المصادر:

1. الإدريسي محمد الحسن، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتاب، ط.1، 1989.
2. الأزدي أبو الوليد، تاريخ علماء الاندلس، تحقيق روحية عبد العز الويغي، دار الكتب العلمية بيروت، ط.1، 1998.
3. ابن بطوطة ، الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتاب العالمي، ط.1،1991.
4. البقاعي أبو الحسن، عنوان العنوان، تحقيق حسن حبشي دار الكتاب الغربي بيروت ط.1، 2002.
5. البكري أبو عبيد الدين عبد العزيز، المعرب في دكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من"المسالك والممالك" تحقيق دوسلان منشورات مكتبة المثنى بغداد، ب.د.ط.
6. التلمساني المليتي المديوني ابن مريم أبو عبد الله بن أحمد الشريف، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
7. التمبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، مكتبة الثقافة الدينية، ط.1، 2003.
8. التنسي محمد بن عبد الله، تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدر والعقيان، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
9. ـــ، نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، منشورات دحلب، الجزائر.
10. الحسن الوزان ليون الإفريقي الحسن بن محمد، وصف إفريقيا ، دار الغرب الإسلامي، ط.2، 1983.
11. الحفناوي أبو القاسم ، تعريف الخلف برجال السلف،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، د.ت.ط

12. الحمصي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر ، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والاقران، تحقيق عمر عبد السلام التدمري المكتبة العصرية ط.1، 1999.
13. الحنبلي ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر، بيروت، 1994.
14. ابن حوقل أبو القاسم محمد على المعروف، صورة الأرض، منشورات دار الكتب الحياة، ب.د.ط.، بيروت.
15. ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تاريخ المغرب الوسيط، تحقيق ودراسة عبد الهادي التازي وأحمد مختار العبادي.
16. ـــ، أعمال الأعلام(تاريخ اسبانيا الإسلامية) تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط.1، 1424هـ /2004م.
17. ـــ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق وضبط علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003.
18. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار القلم، بيروت، ط.7، 1989/1409.
19. ابن خلكان أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
20. خوجة حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان لفتوحات آل عثمان، تحقيق: الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس.
21. ابن أبي الزرع الفاسي أبو الحسن علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
22. الزركشي بدر الدين، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس.
23. السخاوي شمس الدين بن عبد الرحمان، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003.
24. سعد الله أبو القاسم ، الفكون شيخ الإسلام داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.
25. الشفشاوي محمد بن عسكر الحسن، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق د.محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي العربي، الدار البيضاء ط.3، 1424هـ/2003م.
26. الشقراني أحمد بن عبد الرحمان الراشدي ، القول الأوسط في أخبار بعض من

حل بالمغرب الأوسط ، تحقيق ناصر سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، ط.3، 1991.
27. الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح، البدر الطالع في أعيان القرن التاسع، دار صادر، بيروت، 1992.
28. ابن صاحب الصلاة عبد الملك ، المن بالإمامة (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين) تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ، ط.3، 1987.
29. العبدروس الحسني عبد القادر بن الشيخ بن عبد الله ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق: الدكتور أحمد صالو محمد الأرناؤوط أكرم البوسني، دار صادر بيروت، ط.1،2001.
30. العدواني محمد بن محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007.
31. العسقلاني بن حجر، حسين أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي الدرر الكامنة ، تحقيق عقاب دروي، المنظمة العربية للدين والثقافة والعلوم 1991.
32. ابن العطار أحمد ابن المبارك ، تاريخ قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، مطبعة البعث، قسنطينة.
33. ابن العظم، السر المصون ذيل على كشف الظنون، تحقيق الشيخ سليم يوسف دار الفكر للطباعة والنشر لبنان ط.1، 1423هـ/ 2002م.
34. الغرناطي الأندلسي ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية لبنان، ط.1، 1997.
35. الغزي نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لحسن سلمان عبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. 2، 1979.

36. الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1987.
37. ابن فودي عبد الله بن محمد ، ضياء السياسات وفتاوى النوازل مما هو من فروع الدين من المسائل، تحقيق وتقديم: أحمد محمد كافي، الزهراء للإعلام، د.م.ط.، ط.1، 1988.
38. القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار مكتبة الحياة (د. د. ط.، د.م.ط.).
39. القرفي بدر الدين محمد بن يحي بن عمر، توشيح الديباج وحلية الابتهاج ، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط.1، 2004.

40. القسنطيني ابن قنفذ ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق الشاذلي محمد النيفر، تونس، 1968.
41. ـــ، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.3، 1980.
42. ـــ، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق: محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، 1965.
43. ـــ، شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق: حسن صغير دخان، مكتبة الرشد، السعودية، ط.1، 1424هـ/2003م.
44. ـــ، وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، تقديم وتعليق: سليمان الصيد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1404/1984م.
45. القلقشندي أحمد بن علي، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب، دار الكتاب المصري، ط.3، 1991.
46. الكتامي ابن القطان أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الله ، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1990.
47. مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديث، ، ط.1، 1399هـ/1979م.
48. المازوني المغيلي أبو زكرياء يحي ، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: حساني مختار، نشر مخبر المخطوطات بقسم علم المكتبات، جامعة الجزائر، 2004.
49. المالكي ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت ط.1، 1996.
50. المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1994.
51. المحبي محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة.
52. محمد الرصاع، فهرسة الرصاع، الدار التونسية، تونس، 1967.
53. المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعد العريان، الجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث الإسلامي/ قيام الموحدين، ج.3.

54. ـــ، الإعلام عن من حل بمراكش وأغمات من الأعلام، فاس، ط.1، 1355هـ.
55. المقري أبو العباس أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: يوسف النجم محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط.1، 1419هـ/1998م.
56. المكناسي أحمد ابن القاضي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط.1، 2002.
57. ـــ، لقط الفرائد من لفاظة حِقق الفوائد، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، ج.2، 1417هـ/1996م.
58. الناصري أبو العباس أحمد ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2007.
59. الونشريسي التلمساني أبو العباس أحمد بن يحي، الوفيات ، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تحقيق وتنسيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج.2، ط.1، 1417هـ/1996م.

3/ المراجع:

المراجع باللغة العربية:

60. أرسلان الأمير شكيب ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
61. أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط.2، 1417هـ/1996م.
62. إيف لاكوست أندري بريان أندري نوشي، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطامبولي ومنصف عاشور ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ب.د.ط، 1984.
63. باشا أحمد تيمور ، ضبط الأعلام، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط.1، 1995.
64. بروفنسال ليفي، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
65. البستاني بطرس، دائرة معارف القرن العشرين دارالمعرفة بيروت، ط.3، د.ت.ط.
66. بفايفر سيمون، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر،تعريب وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
67. بوحوش عمار ، التاريخ السياسي للجزائر في البداية والنهاية 1962، دار الغرب الإسلامي ط.1، 1997.

68. بوعزيز يحيى، الموجز في تاريخ الجزائر القديم والوسيط ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ج.1، 1999.
69. بوعياد محمود، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن: 9 هـ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
70. البيوني محمد ، النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار العلم دمشق، ط.1، 1999.
71. التليدي عبد القادر، المطرب بمشاهير أولياء المغرب الرباط: دار الأمان، ط.3، 1421هـ/2000م.
72. الجزائري بن حمادوش عبد الرزاق ، رحلة بن حمادوش الجزائري لسان المقال في البناء عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق: أبو القاسم عبد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
73. الجزائري علي رضا أفندي بن حمدان خوجة ، وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال(1832) تعريب وتقديم عمراوي حميدة، مراجعة إبراهيم، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، سبتمبر 1999.
74. الجيلالي عبد الرحمن ،تاريخ الجزائر العام ، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط.2، 1965.
75. جين موسى ، تاريخ الغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي،ج.2، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط.1، 1412هـ/1992م.
76. حجي محمد، الزاوية الدلائية، المطبعة الوطنية، الرباط، 1963.
77. حلمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، د.د.ط.، الجزائر.
78. الحلي الملا كاتب، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، دمشق، 1999.
79. الدراجي بوزياني، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.
80. الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط.3، 1989.
81. زيدان عبد الرحمن ، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة فاس، المطبعة الوطنية، الرباط، ط.2، 1990.
82. سالم عبد العزيز ، تاريخ الغرب الكبير ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.ط.
83. سعد علي ، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط.1، 2002.

84. سعيدوني ناصر، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين و رحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1999.
85. ابن سودة أحمد ، الموسوعة العامة لتاريخ العرب والأندلس، دار الأمير بيروت، ط.1، 1995.
86. ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر ، اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع،
87. ـــ، سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، ضمن موسوعة أعلام المغرب، دراسة وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1996.
88. الشاهدي حسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، د.د.ط.، المغرب، د.ت.ط.
89. شعيب محمد المهدي بن علي ، أم الحواضرفي الماضي والحاضر، تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1400هـ/1980م.
90. الصلابي محمد، إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة،ط.1، 2003.
91. ضيف بشير ، فهرس التراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات تسالة، الجزائر، ط.1، 2002.
92. ضيف مصطفى ، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصر الموحدين وبني مرين، مطبعة التراث المغربية، المغرب، ط.1، 1982.
93. طاهر محمد، من أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.
94. عبد الوهاب حسن حسني ، خلاصة تاريخ تونس (مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.
95. ـــ، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين مراجعة وإكمال العروسي المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1990.
96. الفاسي عبد الكبير، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ضمن موسوعة أعلام المغرب ج.4 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1417هـ/1996م.
97. الفاسي عبد الله، الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر ، ضمن موسوعة أعلام المغرب ج.4، بيروت :دار الغرب الإسلامي، ، ط.1، 1417هـ/1996م.

98. القادري إبراهيم ، بوتشيش تاريخ العرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت لبنان،ط.1، سبتمبر1994.
99. قداش محفوظ ، الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1981.
100. الكتاني يحي ، فهرس الفهارس، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: احسان عباس دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط.1، 1992.
101. الكتبي محمد بن شاكر، فوات الوفيات والنيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973.
102. كحالة رضا ، معجم المؤلفين، جمع وإخراج: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.ط.
103. كنون عبد الله ، النبوغ المغربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
104. كولان، تاريخ الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط.1، 1980.
105. لقبال موسى ، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2002.
106. مجاهد زكي محمد ، الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشر هجرية، دار الغرب االسلامي بيروت ط. 2، 1994.
107. مخلوف محمد بن محمد بن عمر بن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، تخريج وتعليق: عبد المجيد خيالي، دارالكتب العلمية، بيروت، 2003.
108. المدني أحمد توفيق ، كتاب الجزائر نشر دار الكتاب، الجزائر، ب.د.ط، 1372هـ/1963م.
109. المرابطي سعيد، فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط، الرباط، ط.1، 2002.
110. المزاري بن عودة الجزائري، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر،ج.1-2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.
111. مصطفى كمال السيد ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى والمعيار المعرب للونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب القاهرة، 1997.
112. منصور محمد صالح ، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، جامعة قان يونس، ليبيا، ط. 1، 1996.
113. المنوني محمد، حضارة الموحدين ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط.1، 1989م.

114. ـــ، المصادر العربية لتاريخ المغرب.من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، 1404هـ / 1983م.
115. الميلي مبارك، شريط عبد الله ، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
116. ذ ويهض ع ادل، معجم أع لام الجزائ ر، م ن ص در الإس لام حت ى العص ر الإس لامي، مؤسس ة ذ ويهض للثقاف ة والت أليف والترجم ة والنش ر، بي روت، ط.2، 1400هـ/1980م.
117. النيفر محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1996.
118. هلال عمار ، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية ما بين القرن التاسع والعاشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
119. الوافي إبراهيم ، الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر، المغرب، ط.1، 1991.
120. يونس حسني ، فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.ط.

4/ الرسائل الجامعية:

121. بطيب هواري، السوق في الدولة الزيانية، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، 2005.
122. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، رسالة دكتوراه، 1976، منشرات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب.
123. يوسف قرقور، الأعمال الرياضية لابن قنفذ، المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر، 1993.

5/ المجلات باللغة العربية:

124. مجلة الأصالة السنة الرابعة العدد: 26 أوت 1975 مطبعة البعث قسنطينة الجزائر.
125. مجلة سيرتا، جامعة منتوري، قسنطينة، 1998.
126. المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: 2، مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، جوان 2003.
127. مجلة ابن خلدون، بين الجزائر والأندلس، قصر الثقافة، الجزائر، ماي 2007.

6/ المراجع باللغة الفرنسية:

128. Ahmed Heni: Etat Surplus et Sociale en Algérie avant 1830 Entreprise

National de lire Alger. 1986.

129. Charles Ferend: Histoire des Villes de Constantine (document pour sevre a l'lnstore des Ancienes Conceissans Jancinse d'Afrique(la calle t.y.p de l'assocration ora.

130. Chems Eddine Clutour, Histoire Religieuse de l'Algérie, edition ENAD, 2001, Alger.

131. Encyclopédie des Savants et des Hommes de Lettres Algériens, Dar el Hadara, 2002.

132. Marc Cote, Paysages et Patriomane Guide d'Algérie, media plus, 1996.

133. Revue Africaine, n°.52, 1908.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة
المقدمة.....	أ
المدخل.....	1
الفصل الأول: ابن قنفذ وأحداث عصره	14
المبحث الأول: حياة ابن قنفذ	14
1- مولده.....	15
2- بنو قنفذ.....	16
3- إخوته.....	17
4- وفاة أبيه.....	17
5 - أسرة ابن قنفذ.....	18
6 – رحلته في طلب العلم.....	18
أ - بداية الرحلة.....	20
ب – عودته إلى.....	21

قسنطينة.....

9 - شيوخه..... 22

أ - شيوخه 22

المغاربة.....

- حسن بن خلف بن 23

باديس.....

- الشريف 24

التلمساني.....

- ابن مرزوق 25

التلمساني.....

- أبو محمد 25

الزكندري.....

- أبو زيد 26

اللجائي.....

- أبو عمران 26

العبدوسي.....

- 26

القباب.....

- 27

الونغيلي.....

- أبو عبد الله بن 27

حياتي.....
- ابن 27
الشماع.....
ب- شيوخ 28
الأندلس.....
- أبو القاسم 28
السبتي.....
- أبو عبد الله 28
الغرناطي.....
ج – شيوخه 29
الأفارقة.....
- محمد الأنصاري 29
التونسي.....
- ابن عرفة 29
التونسي.....
10- تلاميذه..... 29
11- وظائفه، وامتيازاته 30
ومكانته.....
12- وفاته..... 30
المبحث الثاني: عصر بن قنفد 32
1 ـ الحياة السياسية..... 34

أ- دولة بني عبد 35
الواد.....
ب- دولة بني 35
حفص.....
2- الحالة الاجتماعية 37
والاقتصادية.....
أ- العادات 41
والتقاليد.....
ب- الأوقاف 42
والأحباس .....
ج- 43
الصناعات.....
د-الحياة 43
الاقتصادية.....
هـ- أنواع 45
الأراضي.....
و- 46
التجارة.....
ح- المكوس..... 47
3- الحياة الفكرية والروابط الثقافية..... 52
4- جوانب من الحياة الفكرية بقسنطينة..... 62
الفصل الثاني: أثار ابن قنفذ 77

المبحث الأول: آثاره النقلية 83
1-التاريخ السير والتراجم..... 83
2- 98
التصوف.....
3- 101
المنطق.....
المبحث الثاني: العلوم العقلية 119
1- الحساب 120
والرياضيات.....
2- الفلك..... 125
3- الطب..... 125
خاتمة 127
الملاحق..... 142
قائمة المصادر والمراجع..... 142
فهرس الموضوعات..... 152